سلسلة خبايا الزوايا (٢١)

السلسل العذب
والمنهل الأحلى

تأليف

العلامة أبي عبد الله محمد بن
أبي بكر الحضرمي

تحقيق محمد الفاسي

مجلة معهد المخطوطات العربية
المجلد العاشر - الجزء الأول
محرم ١٣٨٤ هـ
مايو ١٩٦٤ م

جامعة الدول العربية

مجلة
معهد المخطوطات العربية

المجلد العاشر — الجزء الأول

محرم ١٣٨٤ هـ
مايو ١٩٦٤ م

كتاب السلسل العذب والمنهل الأحلى

تأليف العـــــلامة

أبى عبد الله محمد بن أبى بكر الحضرمى

رضى الله تعالى عنه

تحقيق محمد الفاسى

الحمد لله الذى نور قلوب أوليائه بهدى التقوى ، فتسابقت إلى صراطه المستقيم ، تتجارى فى مضمارى خالص الإيمان وأزكى الأعمال . أولئك على هدى من ربهم ، أعدت لهم الجنة نزلا جزاء الانتهاء وثواب الامتثال(١) . وسبقت لهم سعادة الفلاح فى الأزل ، فانتهوا إلى الفوز بخصل السبق فى المآل ، يتمتعون بما اشتهت أنفسهم من قرة أعين وهم فيها خالدون ، لا يتطرق لنعيمهم قاطع الزوال ، ولا يضارون فى رؤية ذى الجلال . عليهم رضوان من الله يقربهم إلى الله زلفى ورحمة وارفة الظلال .

وصلى الله على مسكة الختام ، ولبنة التمام ، وسر السر البشرىّ ومنتهى الكمال ، منقذ المؤمنين من حيرة الضلال . الهـــادى إلى السبيل السواء ، سيدنا ومولانا محمد صفوة الأصفياء ، ونخبة الاجتباء . سيد ولد آدم وآدم بين الطين والماء ، المخصوص من الله بالمحبة بين الأرسال . ورضى الله تعالى عمن له من الأصحاب والأنصار ، والقرابة والأصهار ، والعشيرة والآل . أئمة الاقتداء ، ونجوم الاهتداء ، المخصوصين بالدرجات المنيفة ، والمزايا

(١) فى ك : الأمثال ولا شك أنها الامتثال .

الشريفة ، التى لا مطمع فيها أن تنال ، صلاة دائمة ورضى مجدداً ، نجدهما عُدَّةً يوم لا ينفع بنون ولا مال .

وبعد : فإن الله تعالى بجميل لطفه ، وجزيل صنعه ، تدارك العصر الذى كادت فيه آثار الأعمال أن تدثر ، وشواهد الأحوال ألا تبصر ، ودرارى الأعلام أن تخنس ، ومصابيح العلوم أن تطمس ، بالخلافة التى أحيت مواتها ، وجمعت أشتاتها ، وحيرت طلابها ، ورفعت حماها . فانبعثت القرائح وطمحت الهمم ، وقصد الحق فوضح السنن ، وتنوسى الخابط ، وتلوفى الفارط ، وشمر المجدون ، لما حقه أن يرغب فيه الراغبون ، وفى اقتنائه فليتنافس المتنافسون . وقام لله بالأمر من أعلام مرين الخلفاء الراشدين ، فلم يخل لهم رضوان الله عليهم أجمعين ، بساط من حمله العلم والاستكثار منهم ، ونظرالتحقيق معهم والأخذ عنهم،والمبالاة بعلوقدرهم والمباهاة بانتشار ذكرهم ، والتناجى مع العباد والزهاد فى أغلب الأوقات ، وارتياض نصائحهم بالتخلص لهم فى الخلوات ، وطلبهم فى التبليغ عمن لا يستطيعه من الرعايا من سائر الطبقات ، فيحصل لهم الاطلاع على عامة شؤونهم ، وكافة أمرهم .

فكثر العلم وفشا العدل ، وانسكب على جميع الخلق من الله المن والفضل ، ووجد أهل الخير باستخلافهم عليه عوناً ، وزادت محارم الله احتراماً وصوناً ، فاسترد المغرب بسلطانهم الأعلى عصر الشباب ، وآن للذاهب أكرم الإياب ، وامتد باع أهل العلم فى طرقه . ونجمت مقامات أولياء الله فى أفقه ، استعداداً لأيام من كمل البغية حقها ، وأمّر الحلبة سبقها . إمام الرشد ، والقائم على أمر الخلافة لما قام لها مقام الجد ، الإمام العادل ، الصالح البر ، الزاكى الكامل ، ذو الجود الهامل ، والعدل الشامل والثناء الذى عطر مهب الصبا والشمائل ، أمير المسلمين ، وناصر الدين ، مولانا أبو فارس عبد العزيز بن الخلفاء الراشدين . أيد الله مقامه ، وأسعد أيامه .

فمن كريم سجاياه ، وخصائص مزاياه ، حب الصالحين ، والتشوف للوقوف على آثار الأولياء المهتدين ، وحبهم عنوان الطاعات وأزكى القرب ، ووسيلة للكون معهم فى أعلى الرتب لدى الرب ، فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «المرء مع من أحب» ، فحرصت على أن أخص بتأليف يشتمل على ذكر أربعين رجلا من صالحى هذا العصر ، الذى طلعت فيه شمس غرته السعيدة ، فجلت كل ظلم وإظلام ، وقضت لشمل هدى المهتدين بأكرم ائتلاف وأسنى انتظام ، تبركاً بما خص الله به هذا العدد من رفعة الشأن ، حتى إن بكمال سنيه كمل عقل الإنسان . واقتصرت فيما ذكرت ، على من أدركت ، ووصفت على ما بلغنى من كراماتهم ومناقبهم ، وشرحت ما تعرفت أو عرفته من سيرهم الفاضلة ومذاهبهم ، وجلبت — متى أتيت بأحدهم — ما وجدته منصوصاً فى أحوال ذوى الكرامات ، ومخصوصاً بأهل المقامات . وقدمت من ذلك بين يدى نجوى حاجتى ممن عم عدله وشمل جوده وفضله قرباناً ، ورجوت ببركتهم أن يثمر لى قبوله مناً وإحساناً ، ولا غرو أن أصبت بذلك ضالة الحكمة . فقد جاء: «عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة» . ورتبت ذكرهم على ثلاث طبقات ، تقريباً لتناسب الدرجات .

١ — بدأت فى الطبقة الأولى بمتبع سنن الورع أهدى الاتباع ، السائر فى طرق الاجتهاد بالباع المديد والخطو الوساع ، المؤثر للخلوة والانقطاع ، الملتئمة على تفضيله عقائد الإطباق والإجماع ، القاطع علائق الدنيا جملة وتفصيلا ، فلم يدع بينها وبينه لما أعد للضروريات سبيلا ، الشيخ الجامع المبارك أبو العباس أحمد بن محمد بن عمر بن عاشر السلوى . كان رضى الله عنه للخير سباقاً ، لا يزيده اجتهاده فى العبادة إلا اشتياقاً ، شديد المراقبة والخوف ، عالى الهمة والشرف ، جليل المقام ، ذاكراً لعلم الحلال والحرام ، متمكناً فى مقام الورع لا يشق فيه غباره ، ولا تجهل آثاره .

أصله من «شمنية» وبها خلق ونشأ إلى أن حفظ القرآن وقرأ العلم واجتهد فى الطاعات والعبادات ، وانقطع لسبيل الأعمال الصالحات ، ثم انتقل منها

إلى الجزيرة الخضراء وأقام بها زماناً مشتغلا بتعليم كتاب الله تعالى ، فلقى بها الأكابر من أهل المقامات ، فأنس بهم ولاذ بمرافقتهم ، منهم الشيخ المبارك صاحب الحالات والكرامات ، أبو سرحان مسعود الأبله ، وكان مأخوذاً عن نفسه ، مسلوباً عن حسه . مصروفاً بمحبة الله إلى ما يحمده بعد الحلول فى رمسه ، سمعت الشيخ سيدى أبا العباس يقول : كان الشيخ أبو سرحان عظيم الشأن ، وذلك أنه كان يأتى إلىّ بالمسجد الذى كنت آوى إليه ، فيؤنسنى ويأنس إلى ، فأتى إلى فى بعض مجيئاته وأنا إذ ذاك مؤثر للخلوة بنفسى ، فى بيت فى صومعة المسجد ، فجلس إلى وأقبل يحادثنى ، فبينما نحن كذلك إذ حضرت الصلاة ، فأردت الخروج لأصلى مع النـــاس ، وكانت عندى أمانة لرجل مودعة فى آنية فى زاوية البيت ، وكان يعنّ لأبى سرحان أن يصلى وحده منفرداً ، فقلت فى نفسى إن انصرفت وتركت هذا الرجل هنا ــ وإن غلب عليه الصلاح ــ فاستثمانى له يعارضنى فيه شمول الحكم ، وتردد الخاطر فى نفسى ، قال : فنظر إلى شزراً ، وقال لى : سر لحاجتك ولا تخف على ما فى الآنية الفلانية ، فعلمت صدق الرجل لاطلاعه ، ودفعت الخاطر عن نفسى ومضيت لصلاتى ، قال الشيخ : ولما أن قرب وقت حصار النصارى للجزيرة ، أتى إلى وقال لى : يا أخى إن هذه المدينة ستنزل عن قريب ، فانصرف عنها قبل حلول البلاء بها ، ففعلت تصديقاً له واعتماداً على نور بصيرته، فكان الأمر كما قال، ونزلت بعد ذلك متصلا بخروجه عنها .

رحل وحج ثم آب للمغرب ، فقدم فاساً المحروسة وأقام بها مدة ، ثم رحل إلى مكناسة واستوطنها مدة ، وبها إحدى أختيه إلى الآن والثانية بشمنية .

وقد كان مولانا الخليفة أبو عنان رضوان الله عليه ، أجرى على هذه التى بمكناسة جراية كانت تتعيش منها طول حياته ، نفع الله بها ، ثم انتقل إلى سلا فنزل من رباط الفتح بزاوية الشيخ الكبير الشان ، صاحب الكرامات والحالات الحسان ، أبى عبد الله اليابورى ، وهو معروف القدر معلوم الحال ، أحد شيوخ التربية والمنتخبين الأعلام ، فأقام هنالك دهراً طويلا

على بر واستحسان من الشـــيخ لحاله ، وكان يسميه فيما سمعت : بالشاب الأســـعد الصالح ، وكان يأمر أهل الفضل ممن يلتمس بركتـــه ، بإيناس سيدى أبي العباس والنظر فى مصالحه ، وأسكنه خلوة فى الزاوية المذكورة ، وتسبب له فى إقراء الأولاد القرآن، فإن سيدى أبا العباس كان يختار ألا يأكل إلا من كسبه أو ما علم وجه كسبه ، ثم انتقل للعدوة الأخرى من سلا فنزل منها بزاوية الشـــيخ أبي زكرياء ، الكائنة بقرب الجامع الأعظم وبدار المقدم عليها إذ ذاك ، الشيخ أبي عبد الله محمد بن عيسى ، تلميذ الشيخ أبي زكرياء المذكور ، كل ذلك بعـــد وفاة الشيخ اليـــابورى ، وكان اكتسابه فى هذه المدة ، من نسخه كتاب (العمدة ، فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، وكان معجباً بهذا التأليف مؤثراً لحفظه ، وفهمه ، كثيراً ما يندب إخوانه لذلك ، وكان يقوم على حفظه وربما أقرأه تفهماً لكثير من أصحابه ، ينسخ فيه ثلاث نسخ فى السنة غالباً ، ويسفرها بيده وربما صنع لها أغشية من جلد بيده ، ويبيعها لمن يعرف طيب كسبه بدينار من الذهب العين للنسخة ، لا يزيد على ذلك ، وربما نقص منه اليسير ، ومن ذلك توفر له ما اشترى به داره التى توفى بها فى درب فرات من الجهة[1] بإزاء باب معلقة من سلا ، وفى هذه الدار شهر أمره وانتشر فى الناس ذكره ، واجتمع إليه الأصحاب وانضاف إليه المريدون وانحاش لجنابه التائبون ، على كراهته فى الشهرة وإيثاره للعزلة ، وخصوصاً فى هذا الوقت ، وقد كان قبل يزور إخوانه الصالحين ، ويأنس برؤيتهم ومحادثتهم وملاقاتهم ، فصار بعد سكناه بهذه الدار قليلا ما يظهر ، وناء ما يبدو للعين ويبصر ، وقل ما تأتى لقاؤه إلا لمن لابد منه من المجاورين والمنقطعين لظله .

وأول من صحبه هنالك وأخذ عنه وتهدى بهديه : الشاب المبارك أبو عبد الله محمد الزهرى ، وكان أخص الناس به ، وبسببه ائتلف أكثر من ائتلف معه على ما يأتى بعد إن شاء الله عند ذكر الزهرى رحمه الله . وبهذه الدار لقيه المؤلف سنة ثلاث وستين وسبعمائة فى أول شهر رجب

---

(١) فى ك : بياض قدر كلمة بعد لفظة الجهة .

الفرد ، فى جماعة من الزائرين له والمتبركين به الملتمسين منه الإفادة ، وفدوا عليه من أهل فاس وأهل مكناسة ، فرحب بهم ودعا لهم بالخير ، وحض على ما فيه رضى الله من التقوى والوقوف مع أمر الله ونهيه ، واتباع سنة الله ونبيه ، وقراءة العلم والمبادرة إلى العمل بمقتضاه . وكثيراً ما كان يردد : العلم بلا عمل كالشجرة بلا ثمر ، وأخذ يرغب فى الزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة ، وينهى عن الاستخفاف بحقوق الله تعالى ، والتهاون بالمكاسب واسترسال الغيبة ، وأكل الناس ، وكان ذلك من أهم ما يوصى به ويتحفظ منه ، والله أسأل الهداية لما ندب إليه بمنه وفضله .

وسمعت فى مجالس التردد إليه فى تلك الوجهة من فضل المجاهدة من فوائد اكتساب الحلال ما ينور البصائر ، وقال : الحلال أعظم شعب الجهاد فى الوقت ، وكان من أعلم أهل زمانه فى الحلال والحرام ، وبه نجح فى المغرب الفقه فى هذا الباب من العلم وأحيا رسمه ، وقد كانت اندرست أكثر طرقه ومعالمه ، وانطمست أغلب سبله ومسالكه ، فكان يأتى من علمه بالعجائب ، ويظهر على عمله من تدقيق الأنظار فيه فنون الغرائب ، ويأمر باستنساخ كتبه وقراءتها وتصحيحها ، حتى فشت فى الناس ، وتعيش من نسخها جماعة ممن انضاف إليه ، لم يكن كسبهم إلا من نسخها ونسخ أمثالها من كتب العلم ، وخصوصاً كتب الفقه والتصوف .

فمن كتب التصوف كتاب (النصائح) للمحاسبي ، وكان كثير المطالعة لهـــذا الكتاب حتى كان يجرى منه مجرى الدم ، وعلى قراءته كان يحض من يستنصحه ، ولقد حض عليه مرة مولانا الخليفة أبا عنان رضوان الله عليه ، وندبه لمطالعته فى حين مكاتبته مولانا الخليفة واستنصاحه إياه ، وكان ينظر أيضاً كثيراً فى (رعاية المحاسبى) ، وفى (قوت القلوب) لأبى طالب المكى ، وفى (الإحياء) للغزالى ، وحده ومعه أصحابه أحياناً على حذر منه وتوق وشدة خوف واحتياط ، أعنى فى وقت قراءتها مع الأصحاب وخروجاً منه عن عهدة الالتزام ، فكان أبداً تعليمه نصيحة إرشاد ، تعرف القلوب خلوصه فتتلقاه بالقبول المتمكن ، يزكيه الله فيها . وكان مع سيادته وعظمه

فى صدورهم لا يرى لنفسه عليهم شفوفاً ولا مزية ، بل يعظمهم ويجلس معهم حيث أمكنه الجلوس ، ويكنيهم ولا يدعوهم بأسمائهم ، وكثيراً ما يردد فى كلامه : يا صاحبي إنما أنا واحد منكم ولست بشيخكم ولا معلمكم ، عليكم بكتب العلماء وما صنفه الجلة الفضلاء، ولا يقتد أحد بى فيما لا يجد له أصلا فى كتب العلماء ، ولست بقدوة ولا إمام متبع ، وإنما أنا رجل من المسلمين وكان كثيراً ما يجرى على لسانه من الوصايا ، قوله : الخير فى ترك الشبهات ، والورع عن المنهيات،ورد التباعات ، وترك الغيبة والنميمة ، وبذل النصيحة ، والاجتهاد فى اتباع السنة ، فتلك غاية النعمة . وأول ما كان يحض عليه التائبين ، رد التباعات ، وقضاء الصلوات ، والورع فى المعاملات ، والأخذ بالأوسط من الحالات، والتحرز عن بُنَيَّات الطرق،والشذود من العبادات .

وكان رضى الله عنه أبداً فى زيادة من أمره ورفعة فى حاله ، فكان من حالته أولا فى حين رؤية المؤلف له واستفادته منه ، يجلس مع أصحابه لقراءة كتب التصوف غالب الأيام ، فى دار بمقربة من داره ، حبسها لذلك بعض أصحابه ، وكان المتولى للقراءة والإقراء غيره من أصحابه ، لكن ربما تمر بهم المسألة المشكلة فيفزعون فى حلها إليه ، فيتكلم بما عنده على حالته من الحذر والتحرز إلى كف نفسه عن حضور ذلك المعهد ، واقتصر على داره إلا فى بعض الأحيان القليلة يجتمع معهم فى خارج البلد ، فى رقعة من رباط كان اشتراه بجهة باب سبتة من سلا ، أو بموضع داخل السور يعرف بوراء الجامع فيه الجبانات ، وكان كثيراً ما يجلس فى هذا الموضع متوجهاً للقبلة ، وثم دفن بعد وفاته رحمة الله عليه . وربما كانت له وقفة بعد صلاة الجمعة عند باب داره ، يضطره إليها من يترقب زيارته بها فى أيام الجمعة ، فإنه كان اقتصر على الصلوات فى داره إلا الجمعة ، فكان المتبركون يغتنمون ذلك الموقف المبارك ويدعون تلك الساعة بساعة الرحمة ، وفيها كان يظهر عليه شيء من البسط ، فإنه كان الغالب عليه القبض ، وكانت تعلوه هيبة فلا يقدر أحد أن يكلمه ما لم يبتدئه ويؤنسه هو ، وكان إذا توجه لصلاة الجمعة كأنما هو متوجه إلى المحشر والموقف ، فكان يتنظف لذلك

ويتأهب ما أمكنه ، وكانت له جبة صوف خضراء وحزام صوف معدّان لذلك اليوم ، وكان يلبس فى سائر أيامه جبـــة أخرى بالية قصيرة الأكمام قصراً كثيراً ، وحزام صوف أكحل ، وينتعل نعلا خشناً فى أسفله مسامير ، وكان فى ملبسه ومكسبه وسائر أحواله فى غاية التقشف والتقلل ، متبتلا فى مناجاة ربه وعبادة خالقه . وأخذ فى الأهبة الغاية ينتظر القدوم عليه حتى إنه كان المتناول لما يضطر إليه فى أمر معاشه من طحن وعجن وخبز وغير ذلك ، وربما كان يرغب بعض خواص أصحابه أن يكفيه شيئاً من ذلك ، فيأبى إلا اليسير فى بعض الأوقات ، وكان يرى فى ذلك قطع العلائق ويرغب فى أجر المشقة ، وكان وجه تكسبه إما من نسخه لكتاب العمدة ، وإما من حرث كان يحرثه له رجل من أصحابه معلوم الكسب ، يبذر له يسيراً من القمح فيرزقه الله سبحانه مقدار قوته ، نهايته تسعون صاعاً بصاع النبي صلى الله عليه وسلم ، يأخذ منه مدّاً بمد النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو ربع صاع فى كل يوم ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ويأمر بذلك ، وينهى عن الوصال ، ويقول : بقيت أواصل ماشاء الله ، وأقتات بورق الخبازى وحيوان من البحر يسمى السرنبق نحواً من سنتين ، فأضر بى ذلك فى أداء الفرائض ، وكان يحذر من الخلوة المفرطة ، ويقول : ماينبغى أن يخلو إلا قوى ، فإنى كنت فى بعض خلواتى ليلة ، فأتانى رجلان من الجن فى أيديهما شمعتان موقودتان ، فتمالا لى : نريد خدمتك وأنسك ، فأبيت ذلك خشية الفتنة .

فهذه كانت حاله رضى الله عنه ، وعلى هذا ظاهراً وقف أمره إلى أن لقى الله عز وجل ، واســتأثر به ســبحانه فى شهر رجب الفرد من ســنة أربع وستين وسبعمائة ، وكان من قصة وفاته ما حدثنى به من حضر من أصحابه — فإنى كنت فى التاريخ بفاس — أن الشيخ رحمه الله اشتكى أربعة أيام فكانوا يبيتون عنده التماس بركته وخدمة له ، قالوا : فلما كان فى الليلة التى قبض فيها ، جلسنا إليه على العادة نحادثه بمسائل من العلم ونلاطفه بما نميل إليه نفسه المبــاركة من الخير ، فتلقانا فى تلك الليلة بالانشراح والبسط ولين الجانب ، والإمتاع من حديثه والإقبال بالفائدة علينا ، والإشارة إلى أسرار العلوم

وكشف حقائقها وغوامض أسرارها ، بما علمنا أنه مما فتح الله على قلبه بما لم يطلع عليه إلا خواص أوليائه ، فعجبنا منه غاية العجب ، وفرحنا به وابتهجت نفوسنا ، وانشرحت صدورنا ، وما نرجو الله تعالى أن ينفعنا به ، وكان ذلك فتحاً لم نعهده قط منه ولا نألفه ، فسرحنا فى جنة الأنس نتنعم به وبحديثه ، ونتلذذ إلى أن مر من الليل جزء وافر ، ثم التفت إلينا مسرعاً فقال : يا أصحابنا ، أطفئوا السراج ، وانصرفوا راشدين ، وخذوا مضاجعكم فإنى إن شاء الله بخير والحمد لله تعالى ، قالوا : فانصرفنا من فورنا امتثالا لأمره على كره منا لمفارقته ، وصرنا إلى البيت الآخر من داره ، فنام بعضنا وبقى بعض دائم اليقظة امتداد ساعة ، وإذا برجل قد هب بعد أن كان نائماً وعليه أثر روع ، فقال : أدركوا الشيخ ، فإنه قبض رحمة الله عليه ، قالوا : فقمنا مبادرين إليه ، وأسرجنا السراج ، ودخلنا عليه فوجدناه كما قال قد قبض ، فعجبنا من ذلك وسألناه من أخبره ، فقال : رأيت رجلين عليهما أثر الصلاح ، أحدهما خارج من عند الشيخ والآخر داخل من باب الدار ، فقال الداخل للخارج : ما الخبر ؟ فقال له : انبسط الشيخ بنفسه ومات ، فأفقت كما رأيتم ، فقلنا : إن الشيخ حضره رجال الغيب ، فجهز ودفن فى صبيحة تلك الليلة ، فى الموضع المدعو بوراء الجامع ، وقد كان دفن بمقربة من ذلك الموضع ، جملة من أصحابه ، ممن كان مات قبله رحمة الله على جميعهم .

والذى حضرنى مما حدثت به من كرامته ، وما أظهره الله سبحانه عليه من علامات عنايته على شدة إخفائه لذلك وستره لأموره ، فإنه كان مذهبه ذلك ، وهو الذى طمس كثيراً من أخباره وسيره فى ابتداء أمره ، وما كان أحد يقدر على الأخذ معه فى شىء من ذلك ، ولا يسأله عنه إلا اليسير ، لكن مع تراخى الأيام يجرى فى أثناء حديثه ما يلوذ به الحفظ من المريدين .

فمن ذلك ما حدثنى به غير واحد من أصحابه عن الشيخ نفسه رضى الله عنه أنه قال : من جميل صنع الله تعالى بى فى وجهتى للحجاز ، أنى لما بلغت إلى حيث يحتاج إلى شراء الراحلة ، وخرج الناس لشراء ما يحتاجون منها وأبطأت عنهم إلى أن اختاروا حاجتهم ، فجئت فلم أجد ما أشترى غير جمل

هزيل لم يرض به أحد ممن تقدمنى ، فاضطررت لشرائه وعقدت مع صاحبه ، ورمت دفع الثمن فاشترط أن يكون الثمن ذهباً أميرياً ، فسقط فى يدى من أننى لا يمكننى تركه وليس عندى ذهب أميرى ، فأخرجت ذهبية كانت عندى لأن يتخير منها ما شاء وأرغب منه فى قبوله وإن كان غير أميرى ، قال : فيسر الله تعالى ووجدنا من الذهب القدر الذى احتجنا أميرياً لا ينقص شيئاً ولا يزيد شيئاً ، فحمدت الله على تيسيره على ، وركبت راحلتى وتوجهت،فكانت بجزيل لطف الله تعالى وفضله على من أحسن الرواحل وأجودها .

وحدثنى أيضاً بعض أصحابه ، قال : لما كان الشيخ برباط الفتح فى زاوية الشيخ اليابورى كنا نتردد لزيارته والتبرك به ، قال:فكلفنى يوماً أن أسوق له كتاب رعاية المحاسبى ، قال:فلما كان بعد ذلك جئته بهفطلبته فى خلوته فلم أجده ، وطلبته فى سائر الزاوية فلم أجده ، وكان وقت الصلاة وأردت الوضوء فتحيرت أن أباشر الوضوء والكتاب معى ، أو أتركه وأنصرف لشأنى فأخاف عليه الضياع ، ولا فى الزاوية إذ ذاك أحد غيرى ، فإذا بى أسمع حسًّا خلفى ، فالتفت فإذا أنا بسيدى أبى العباس مبادراً يقول : هات ، هات ، فتعجبت من أين أقبل بسرعة ولم أره ، ومن أين عرف ما عندى ، فلما رأى تعجبى وما أصابنى من أمره ، أشار لى بيده إلى ناحية الساحل ، ولم يفصح . أىأنى كنت بالساحلمن وراء الزاوية ، فعلمت أنها كرامة للشيخ رضى الله عنه،ورجع إلى ذهنى وازدادت رغبتى فى بركته[1] .

وحدثنى بعض خواص أصحابه ممن كان مجاوراً له فى درب فرات [2]، وهو الموضع حيث داره التى مات بها رحمة الله عليه ، قال:سمعت فى بعض الليالى وأنا مجاور للشيخ حركة ورجة ، فتوهمت أنها حركة بعض أهل الدعارة وأصواتهم حول دار الشيخ ، فبادرت من فورى للخروج لأنظر ذلك ،

---

(١) هذا الفصل ساقط من ك .. أعنى من قوله : وحدثنى أيضا .. الى .. فى بركته .

(٢) فى ك : فوات .

وتوهمت أن يكون منهم من سوء الأدب بخطوره على محله على تلك الصفة ، وخشيت أن يكون معهم خمر أو غير ذلك من المحرمات ، فلما أن بلغت إلى باب داره بادرنى من خلل الباب ومن أعلى الحائط ، نور كاد أن يغشى بصرى ضياؤه ، فأدركنى من ذلك دهش وخفت على نفسى ورجعت عليها باللومة ، وقلت : يا نفسى تتعرضين أنت لحراسة مَن الله حارسه ووليه ، فلما كان بعد ذلك قصصت القصة على الشيخ ، فتبسم وقال لى : كان رجل يصلى هنالك ، وأشار إلى مصلاه من داره فورد عليه شخص آخر وأشار بإصبعه للهواء من جهة المغرب ، فكان ما رأيت ، كأنه يقول جاءه رجل من الهواء ، فعلمت قدر الشيخ رضى الله عنه ، وازددت فى بركته رغبة ، وبفضله يقيناً . وكراماته رضى الله عنه كثيرة على شدة إخفائه لأمره وستره لحاله ، ولولا أنه كان ينهى عن تتبع ذلك وصرف الهمة إليه لاستولى حفظ أصحابه على الكثير من ذلك ، لكنه رحمه الله لم يزل يرفع الهمم لأرفع من ذلك ، ويقول : غاية الكرامة الاستقامة ممن أكرمه الله تعالى ووفقه لتقواه . ويستدل بقوله عليه السلام : «استقيموا ولن تحصوا» ، وهى كانت صفته وطريقته ، وبذلك كان يأمر وإليه يندب ، فكان كثيراً ما يقول : ما ينبغى للمريد أن ينام حتى يحاسب نفسه بما صنع فى يومه ذلك ، فيتوب على الإساءة ويستزيد الله فى الإحسان ، ويقول : أما أنا فلا أنام إلا بعد محاسبة نفسى ، وبعد كتب وصيتى حذراً من فجأة الأجل .

وله رضى الله عنه كلمات تدل على فضله ، وكان ربما أوردها نادراً ، منها قوله : لا ينبغى أن يشتغل بالنوافل إلا بعد عمل الفرائض ، وكان يقول : الغش أصل كل خلق سوء ، وما أذكر أنى غششت قط مسلما ، وكان يقول : لا ينبغى لأحد أن يعمل بجهل ، وإنما العمل بعد العلم .

ولما أن كان الشيخ رحمه الله يحافظ على اتباع الورع ، فنجلب ما قيل فيه ، وقد قيل : إن الورع مقام من المقامات العالية ، والأحوال الشريفة السامية ، لما جاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى هريرة رضى الله عنه : «كن ورعاً تكن أعبد الناس» .

وأوحى الله سبحانه إلى موسى عليه السلام ، لا يتقرب إلىّ المتقربون بمثل الورع .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «والذى نفسى بيده ، لو صمتم حتى تكونوا كالأوتار ، وصليتم حتى تكونوا كالحنايا ، ما أغنى ذلك عنكم شيئاً إلا بورع صادق» .

وقال سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه : كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع فى باب من الحرام .

وقيل : ملاك الدين الورع ، وآفاته الطمع .

وقيل : من در فى الدين ورعه ونظره، جل فى القيامة قدره وخطره .

وقال الشيخ أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه : الورع ترك الشبهات .

وقال يحيى بن معاذ : الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل .

ولقد سمعت الشيخ رحمه الله ورضى عنه فى جماعة من أصحابه غير مرة ، يقول لشدة محافظته على توخى الورع : أنا أستغفر الله سبحانه إلى الآن من مسألتين اتفقتا لى وأنا ببلاد الأندلس : وذلك أنى كنت يوماً راكباً حماراً ماراً به على طريق بين زرعين عن يمين الطريق وشماله ، وكنت أتخوف هجمة الحمار على شىء من ذلك الزرع ، فغلبنى مرة وأخذ شيئاً يسيراً ، وكنت لا أعلم صاحبه فأستحل منه ، فأنا إلى الآن أستغفر الله لصاحبه ولى متى ما ذكرت ذلك . ويوماً آخر كنت ماشياً فى وقت الهاجرة على الطريق وقد أجهدنى العطش ولا ماء هنالك ، فلقيت شاباً وبيده كوز ماء فاستسقيته فسقانى ، فلفرط العطش نسيت سؤاله حتى شربت ، ثم سألته لمن الكوز ، فأخبرنى أنه لغيره ، ولم يمكنى لقاء صاحبه ، فأنا إلى الآن أستغفر الله له ولى .

وأما تحفظه فى منطقه فكنت حاضراً عشية يوم فى داره وبعض أصحابه ، فأمر رجلا منهم أن يطلع على السطح لينظر هل غابت الشمس أم لا ، فاطلع ثم قال له: ياسيدى بقى شىء لا شىء ، فرأيته قد تغير وجهه وكره ذلك ، ثم قال له : ياصاحب — وكانت وصاياه : لايكون كلام أحدكم عبثاً ولا يؤدى

إلى كذب – فقال ذلك وألحق به : إما أن تقول بقي شيء أو تقول غابت . وكان رضي الله عنه بعيداً من الهزل في دقيق الأمر وجليله ، فلقد حدثني غير واحد من إخوانه وأصحابه ، أنهم حضروا يوماً وقد ورد عليه وارد فأدخله داره وقال له : جز ، وأشار إلى صدر المجلس ، فقال له : ياسيدي الموضع موضعنا ؟ فقال له : ياصاحب ، هزل القول جد ، ولو قلت لك نعم لأخرجت الدار عن ملكي ، وذلك أسطع برهان على جد الشيخ في قوله وفعله . فالله تعالى ينفعنا ببركته عاجلا وآجلا بمنه وفضله .

٢ – ومن الطبقة الأولى : الصادق اللهجة ، السالك على أهدى المحجة ، المنطلق أسرة الوجه عند بسط الحجة ، مؤثر الإيثار ، وأنس المريدين والزوار ، المكاشف بالمغيبات والأسرار ، معلم القرآن ، ومنور بصائر الشيب والشبان . الشيخ أبو محمد عبد العزيز الصنهاجي السلاوي الدار ، الغريق في الخير والصلاح ، فهو صالح ابن صالح ابن صالح ، وقبر والده بسلا يزار وتلتمس منه البركة .

لقيته رضي الله عنه في السنة التي لقيت بها سيدي أبا العباس بن عاشر فتبركت به والتمست منه الدعاء ، فتلقاني بما يتلقى به أمثاله ممن عمر الله باطنه بالحق ، وحفظ طريقته بالصدق ، وأبدى على محله من أنوار السعادة أوضح الشواهد ، وكرمه بما أعانه عليه من معاهدة العبادة التي هي رأس المحامد ، فلازمت التردد له والاستفادة منه ، والرغبة في مقبول دعواته المباركة ، فأولاني من ذاك ما أرجو من فضل الله سبحانه خيره عاجلا وآجلا .

وحاله – رضي الله عنه – النهاية من دماثة الأخلاق ، وسهولة الجانب ، ولين الانقياد للخير ، وإطعام الطعام ، وبذل الجهد في قضاء حاجات المسلمين ، وله خصائص وحالات ، تأخذ بمجامع القلوب ، فتقلب الأعيان للخير ، وفراسة صادقة يشتمل إشراق نورها على القريب والبعيد ، وله في البسط الباع المديد ، وقد قال أهل الطريقة : البسط مقام من مقامات فحول الرجال ، وكبار أرباب المشاهدات والأحوال ، ألبسه الله رداءه بعد

ما تقدمت له مشاق الرياضات ، وتحمل ثقل أعباء الاجتهاد ، ممن لا يقوى على حملها إلا موفق قوى ، كل ذلك مستفيض عنه على جميع الألسن ، ولقد سمعت منه بعض ذلك يقوله على جهة التشويق وتنبيه النفوس ، وما يتدرج إليه شيئاً فشيئاً ، مما يحسب الغافل أن يقدر عليه من وصال صيام وسياحة ، وخلوة وذكر وتلاوة ، اتصلت المداومة بطول السنين والأزمنة الكثيرة ، وما شاهده فى توجهاته من العجائب ، وما رأى من الألطاف الشاملة ، ممن انقطع إلى باب الله الكريم ، وله حالات وخصائص يسلم لمثله من الأكابر فيها ، وكثيراً ما ينشد إذا استشعر من أحد عليه إنكاراً :

واخجلتى من قلبي القاسى ... وما جرى منه على راسى
العز موجود لمن يشترى ... وإنما المحنة إفلاسى
إن أنكروا دُفّى وشَبَّابَتى ... وهز عطفى بين جُلّاسى
لاغرو أن أفتوا على علمهم ... فإنهم ما شربوا كاسى

ملاذ أنس الأنفس، ومغنطيس راحة القلوب، ومسجد الإحرام ، ما زال أهل جيله من العلماء والصلحاء يكثرون المواظبة لزيارته ، وكثيراً ما جمعهم مجلسه كالسيد أبى العباس بن عاشر فيما قبل أواخر عمره، وهجيراه : بالصفا ينال الخير ، كن صافياً يصف لك .

وله رضى الله عنه كرامات ظاهرة وأحوال سنية ، ولقد حكى لى جماعة من الأخيار ، قالوا : بتنا عند الشيخ عبد العزيز فأنشده منشد حسن الصوت ، فطرب الشيخ وتواجد كثيراً وبعض من حضر من أصحابه ، قال بعضهم : فوجدت فى نفسى ما يجده الضعفاء مثلى ومن لا ذوق له بالطريقة ، فنظر إلى الشيخ بعد ما مر ذلك الخاطر ببالى نظرة منكرة فلم يزل الخاطر ، فأخذ بيدى وأقامنى من بين أصحابه ، وزجرنى على ذلك الخاطر ، فلم يزل ما فى نفسى ، فأخرجنى من موضعه وهجرنى دهراً ، وكنت أجئ إليه والخاطر لم يزل ، ولا أستطيع أن أراه إلى أن تداركنى الله بلطفه، ومن على برحمته ، وأزال ما كان فى خاطرى فجئت مبادراً للشيخ ، فوجدته منتظراً

إلى ، فتلقانى بالقبول وحيانى وأقبل على ، فحمدت الله سبحانه وجددت ميثاق توبة لا أعود إن شاء الله أبداً لما كان منى من سوء ظنى بمن له نصيب وافر من جناب الله عز وجل .

وكان من المريدين حَوَّات من أهل الخير والاستقامة ، يتعهده ويحسن الظن به ويصطاد الحوت ، قال : اصطدت يوماً عشرة أحوات فوقع فى نفسى أن أهدى خمسة منها لسيدى عبد العزيز ، وخمسة لسيدى أبى العباس ابن عاشر ، ثم تردد الخاطر فى صدرى هل يقبل ذلك منى سيدى أبو العباس لورعه وتحفظه أم لا ، فسبقت بها إلى سيدى عبد العزيز فأهديته ما أخرجته برسمه ، فقال لى مكاشفاً : وأين حظ أخى أبى العباس ، فقلت له . يا سيدى هو حاضر ، ولكنى خشيت ، فقال : بل سر إليه فإنه سيقبله إن شاء الله ، فبادرت لدار سيدى أبى العباس فأدركته وهو خارج من داره ، فقلت له : ياسيدى عساك تقبل منى هديتى هذه . ورمت دفع الحوت إليه ، ففكر ساعة ثم قبلها منى ، فسررت بذلك ثم حمدت الله ، فقال : تعود للصيادة اليوم ؟ فقلت له : إن أمرتنى بذلك يا سيدى ، فقال لى : سر على بركة الله ، فانطلقت مسرعاً إلى مكانى الذى كنت أصطاد فيه ، فيسّر الله على فى ذلك اليوم من ذلك الموضع من الرزق ، شيئاً لا أصفه وفوق ما كنت أعهد بأضعاف مضاعفة ، فاشتد سرورى وانطلقت إلى سيدى عبد العزيز فأخبرته الخبر ، فقال لى : إن الشيخ أبا العباس كان قد ورد عليه وارد واشتهى عليه الحوت فيسر الله عليه فيه على يدك ، فأعقبك الله ذلك الرزق ، وما أعد الله جل وعلا لك فى الآخرة بمنه وفضله أعظم .

ولم يزل يحكى على المغيلى وهو شاب من السلاويين من أهل الخير معلم لكتاب الله تعالى ، قال : دخلت يوماً على الشيخ سيدى عبد العزيز أنا وبعض أصحابنا على عادتنا من زيارته ، فبنفس ما وقع بصره على دفع إلى دراهم ، وقال لى : سر مسرعاً بهذه إلى والدتك ، وكنت منذ يومين ما رأيت والدتى لسبب كان شغلنى عن ذلك ، قال : فبادرت إلى ما ذكر فوجدت والدتى كان أضر بها الجوع لغيبتى ، وهى فى غاية الاضطرار ،

وقد كثر وجدها على ، فساعة ما رأيتها ، دفعت إليها الدراهم وقصصت عليها القصة ، واسترضيتها فرضيت عنى والحمد لله ، وكل ذلك ببركة الشيخ واطلاعه بأمور إخوانه نفعنا الله به .

وكان أحد الفضلاء من أصحابه يقول : أتيت سيدى عبد العزيز متبركاً ، وكان زمن الصيف ، ومن عادة الشيخ أن الزائر لا ينصرف إلا عن ذواق (١) ، فقلت فى هاجس خاطرى قبل أن أصل إليه : إن الشيخ لا ينصرف الزوار عنه إلا عن ذواق ، وهذا زمن الصيف ووقت الهاجرة ، وأنا على إثر رياضة وتعب ، ولعله يقدم لى خبزاً وعسلا فتضرنى حرارة العسل ، ثم راجعت نفسى وقلت : إن كل ما يقدم الشيخ إن شاء الله لا يضر ، ولعله لا يقدم ذلك ، قال : فدخلت عليه فى داره فسلمت وجلست ، فنظر إلى متبسما وأتى بخبز وعسل ، وصار يغمس الخبز فى العسل بيده ويناولنى ويقول لى : كل . ولا بأس عليك إن شاء الله ، فوالله لقد أكلت حتى تمليت ، فما ضرنى والحمد لله شىء ، ولا أنالنى الأكل إلا خيراً ببركة الشيخ ، وتنوير باطنه .

وحاله رضى الله عنه كله عجب ، وقدره معروف وبركته ظاهرة ، وقد قيل : إن البسط غاية الرجاء ، كما أن القبض نهاية الخوف ، وهو علامة الأنس ودليل القرب ، ولا يحفظ حاله فيه إلا كبير معتنى به فإنه مزلة الأقدام ، والبسط ضد القبض ، وهما حالان تثيرهما الرغبة والرهبة ، ولا قيام لأحدهما إلا بصحة الآخر ، قال شيخ الطريقة أبو القاسم الجنيد : الخوف يقبضنى والرجاء يبسطنى ، والحقيقة تجمعنى والحق يفرقنى ، إذا قبضنى بالخوف أفنانى ، وإذا بسطنى بالرجاء ردنى علىّ ، وإذا جمعنى بالحقيقة أحضرنى ، وإذا فرقنى بالحق أشهدنى غيرى فأقصانى عنه ، فهو فى ذلك كله محركى ومسكنى ، وإذا فتح الله تعالى للعبد باب البسط كان

---

(١) أى الا بعد أن يتناول شيئا من الطعام ، والذواق : المذوق يقال : ماذقت ذواقا أى ما أكلت شيئا .

أحوج ما يكون للأدب ، وقيل : إذا انبسط الولى شملته الرحمة واتصلت منه بالصديق والعدو ، وقيل : من لقى مبسوطاً فى حاله بلغ منه جميع آماله .

٣ ــ ومن الطبقة الأولى : الحميد المناقب والخلال ، المعدود فى جلة أماثل الرجال ، الموصوف بفضل المحبة وزكاء الأفعال ، الظاهرة على محله مخايل سنا الأحوال ، المقبل فى كل أحيانه على عبادة مولاه ، معلم كتاب الله ، أعف من زرت عليه فى جيله من الطهارة الجيوب ، الشيخ المبارك أبو الحسن على بن أيوب ، الخطيب برباط الفتح ، تبركت به رضى الله عنه فى السنة التى تبركت بسيدى أبى العباس بن عاشر فيها ، وواظبت على التردد إليه لحضار المتعلمين[1] بين يديه فدعانى لداره فى عدد من المتبركين ، فأمتع الله من إفادته العلمية ونصائحه الدينية بما يجريه الله على ألسنة الأخيار المتقين من عباده الصالحين ، مشوباً بكثرة الحياء والحشمة وشدة الخوف والخشية ، ولزوم أطراف الفكرة ، فلا يكاد معها أن يصعد طرفة عين ، ولا أن ينقل إنسانه[2] من أين إلى أين ، وآن للقلوب أن تنفطر بما أوجده الله سبحانه ببركته من امتعاض البصائر ، وحق للأشواق أن تخرق بشررها المتطاير ، أخبرنى غير واحد ممن يعرفه قديماً أنه كان فى بدايته مفرطاً فى الاجتهاد ، مواصلا أطراف النهار بأواخر الليل فى عبادة رب العباد ، على طريقة الأعلام ، فأنهته إلى ما قسم له من عناية ذى الجلال والإكرام مغبوط الأحوال والأقوال ، معروف الهمة إلى منهاج خيار الأمة ، وله كلمات تدل على تمكن فضله وتنوير علمه ، يقول : من لم يفتح له من القرآن مشرب لا يروى أبداً ، ومن قوله : اتباع السنة فى الرخص خير من ارتكاب الاجتهاد بالبدعة ، ويقول : بالرحمة والرفق أدركت الأشياء العالية لا بالعنف والمشقة ، ويقول : من ظن الحق فى غير القرآن ضل ، ومن طلب الوصول على غير طريق السنة لم يصل أبداً ، ومن صفا له وقت دخل

---

(١) الحضار فى اصطلاح المغاربة هو الحضور لدى معلم ، لذلك يطلق هذا اللفظ على المكتب ويقال للتلميذ محضرى .

(٢) اى انسان عينه .

الباب . وهو كثير الذكر مواظب على الخير ، تال لكتاب الله تعالى ، مشتغل بالعلم ، والغالب عليه جميل الظن وحسن الرجاء بما عند الله سبحانه من خير ومغفرة .

وقد قيل : إن الرجاء مقام من مقامات المتقين ، وحالة شريفة موصوف بها أهل الفضل والدين .

وفى حديث أبى الدرداء رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، عن جبريل عليه السلام قال : «قال ربكم عز وجل : عبدى متى ما عبدتنى ، ووحدتنى ، ولم تشرك بى شيئاً غفرت لك على ما كان منك قبل ، ولو استقبلتنى بملء الأرض ذنوباً وخطايا استقبلتك بمثلها مغفرة فأغفر لك ولا أبالى» .

والرجاء تعليق القلب بمحبوب سيحصل فى المستقبل ، وبالرجاء عيش القلوب فهو غذاؤها ، والفرق بين الرجاء والتمنى ، أن الرجاء مؤاخ لجد العمل والتمنى مطية الكسل ، والاجتهاد ينمى رجاء العباد ، والتمنى يزرى به التسويف إلى بلوغ النفاد ، فهذا لتحصيل فائدته محمود صراطه المستقيم ، وهذا لخيبته مذموم .

وقال ابن جبير : الرجاء ثلاثة : رجل عمل حسنة فهو يرجو قبولها ، ورجل عمل سيئة ثم تاب فهو يرجو المغفرة ، والثالث الرجاء الكاذب يتمادى فى الذنوب ويقول أرجو المغفرة .

وقد قال على رضى الله عنه : الأمانى بضائع النوكى (١).

وقال الشيخ الدقاق : الرجاء والخوف كجناحى طائر إذا استويا طار الطائر وتم طيرانه ، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص ، فإذا ذهبا صار الطائر فى حد الموت .

وقيل: إذا اعتدل رجاء المؤمن وخوفه استقام ، كما جاء : لو وزن رجاء المؤمن وخوفه لاعتدلا . والله أعلم .

٤ — ومن الطبقة الأولى المشدود عرى الاعتزام ، فى مصالح الإسلام ، القائم على حجج التبليغ حق القيام ، الذى لم ير فى مدلهمات المهمات بنائم ،

(١) النوكى جمع أنوك وهو الاحمق .

ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، فيلتمس إحسانه فاجر وبر ، ولا يغيب عن قلبه أن فى كل كبد رطبة أجر ، يخلص فى الحق ويناوى ، ويعالج جراحات الطارئات فيداوى ، الشيخ أبو عبد الله محمد بن موسى الحلفاوى ، من مدينة إشبيليه ، نزل فاساً وبها أدركه محتوم الأجل سنة ثمان وخمسين وسبعمائة ، كان له رضى الله عنه إذن فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حسم به أدواء الفساد ، وقمع الأشرار عن بغيهم المعتاد ، يقابل بخاطر ماض ، وفراسة صادقة ، عالى الهمة ، شديد الحزم ، وله شأن معروف مع مولانا الخليفة أبى عنـــان رضوان الله عليه وحكاية مشهورة إذ كان يعظمـــه ويؤثره ويعينه على الأخذ على أيدى المعتدين المرتكبين ما نهى عنه الدين ، والإيثار على الضعفاء والمساكين ، وربما تكفلت صدقته بجميع مؤن المحتاج من قوت ومن لباس مستوفى الجزئيات فى الدفعة الواحدة، فيكفيه السؤال طويل مدة ،ليمتعه بالانتفاع بنفسه من توجه لعبادة أو استنهاض لكسب، ويصل تحنث عبادته بالطواف على الفقراء والمحتاجين فى الحضرة ، ويتفقد بالفواكه الرطبة واليابسة فى أوانها من تميل إليها نفسه فلا توصله المتربة إليها ، يبتاع منها الكثير متى أظل زمانها وتمكن إبانها ، ويضعها فى حانوته بالحلفاويين من فاس ، ويحتمل نهاية ما يقدر على رفعه على رأسه ، فيقصد به المظان إلى أن يفرغ الوعاء، فيعيد امتلاءه فيلحق تلطفه الضعفاء بالأغنياء، فى استطعام شهوات ما أنعم الله به على خلقه ورزقهم من طيباتها ، ويبعث العيون للبوادى فيعانى بها المرضى ، ويلين لهم خشن العيش ، ويرفق بالمتخذ من الحيوان والمـــألوف ، وأعـــد لذلك داراً يجمعهم فيها ويناولهم بيـــده ، وكان لا تبصر له بطانة ، ولا تعرف له عن اجتهاده مهلة ، دائم الاشتغال ، متوالى العمل ، ممكباً على ما أمله من مقاصده جلداً على ملتزماته ، قاطعاً علائق ما يدخل عليه شائبة أو يصرف باله إلى ما لايعنى به . ومن ذلك ما اشتهر من حديثه فعلمه الكثير ، أن ملاصق داره من جيرانه كانت له زوجة جهيرة الصوت عالية الكلام، فكان متى استقر بداره حشا أذنيه قطناً تحفظاً من سماعها ، فلا يزال طول مكثه بداره على تلك الحالة ، إلى أن يفارق داره فيزيل عن أذنيه ، ديدناً لايفارقه ولايغفل عنه ، واتصلت مجاورتهم نحو عشرة أعوام .

أخذ طريق التصوف عن الشيخ يعقوب الزيات من أهل فاس ، وكان ممن له قدم فى الطريقة ولســان صدق ، وكان والد ســيدى أبى عبد الله أيضاً له حظ وافرمن الخير وصحبة مع الفضلاء ، واتصال الألفة بهم والاطلاع على خصائصهم ، فكان له صاحب منقطع للعبادة بجامع الزيتونة من داخل باب الفتوح ، مواصل الصوم والصلاة والذكر والخيرات ، واصل مرة ثلاثين يوماً ، فلما انتهى العدد الذى كان فى نفسه ، اشتهت عليه نفسه أن يفطر فى تلك الليلة حساء حمص بسمن وبصل وسمن غنمى[1] ، قال : فلما كان العشا جاءنى سيدى أبو عمران موسى وسيدى أبو عبد الله الحلفاوى بما اشتهيت من غير وعد ولا طلبة منى . ولم يكن يعلم بصومى أحد غير الله سبحانه ، فقال لى يا أخى طاوعتك كثيراً فطاوعها قليلا ، يعنى نفسه فيما اشتهت .

وللشيخ أبى عبد الله كرامات ، حدثنى غير واحد من أصحابه ، أنه كان رجل من أهل الخير من أهل بنى بسيل ، كان من أكبر أمنياته على الله تعالى ورغبته من إحسانه ، ألا يميته حتى يريه ولياً من أوليائه ، قال : فرأيت ذات ليلة النبي صلى الله عليه وسلم ، وخلفه رجل لم أكن رأيته قبل ذلك ، فقال : يا فلان أتريد أن ترى ولياً من أولياء الله تعالى ؟ فقلت : نعم ، ومن لى بذلك يا رسول الله ؟ فأشار إلى ذلك الرجل خلفه ، وأعلمنى أنه من أهل فاس ، قال : فاستيقظت فرحاً مسروراً ، فلم أستطع أن أرجع لنومى فقمت وأدلجت سراى ، وسرت فوصلت لفاس مع حل باب البلد ، فدخلت وبلغت الجامع الأعظم ، فأول من لقيت ممن أعرف ، الشيخ الحلفاوى ، فنظر إلى وتبسم وقال لى : يا فلان أظنك تريد أن ترى صاحبك ؟ قلت له : نعم يا سيدى ، وعلمت أنها منه مكاشفة ، فقبض على يدى وانطلق بى لحانوته فأقعدنى بجنبه ، وأقبل يحادثنى ويؤنسنى على ما بى من إفراط القلق لما وعدنى به حتى ارتفع النهار وأقبل إليه أصحابه على العادة ، فكان آخر وارد عليه صاحبى الذى رأيت فى النوم ولم أكن أعرفه معه قبل فلما رأيته عرفته ، فابتدرنى وقال لى : أهو هو يا فلان ؟ قلت : نعم ، وأقبلت عليه فقبلت رأسه ويده فى سلامى عليه .

---

(١) فى ك : وخبز مختمر ، عوض وسمن غنمى .

وكان رجل من الفضلاء ، كانت له زوجة سوء تكلفه فوق طاقته ، فلما وصل عيـــد الأضحى كلفتـــه أن يشترى للتقرب بقرة ، ولم يكن عنده إلا ما يشترى به كبشاً ، فاستعذر لها وقال لها : والله ما أملك إلا ثمن كبش ، فأغلظت له فى القول ، وألحت عليه فى شراء البقرة ، وهددته بما لها قبله ، وكان لهـــا قبله دين ثقيل ، فخرج مهموماً كئيبـــاً ، قال : فسرت مفكراً حزيناً لا أدرى ما أصنع ، فمررت بحانوت سيدى أبى عبد الله الحلفاوى ، ووالله ما اطلع على ما وقع بيننـــا أحد ، فلما طرفنى [1] الشيخ تبسم إلى واستدعانى بتلطف ، ودفع إلى ثلاثة دنانير من ذهب ، وقال لى : سر وأزل كلفتك بهذه ، واشكر الله سبحانه على التيسير عليك .

وكان رجل من طلبـــة مدرسة الحلفـــاويين كثيراً ماينكر على الشيخ وينتقد عليه جميع أفعـــاله ، إلى أن بلغ عليه الأمر فى ليلة من الليـــالى سهرها يصـــنع هجوا فى الشيخ وكتبه فى لوح ، قال : فلما آذن الله لسيل الصباح أن يتفجر ، مررت بالشيخ فى حانوته فقال لى : يا فلان ألا تتقى الله ولا تقل إلا ما تعلم صدقه وتمحو اللوح ، فعلمت أن الله سبحانه أطلعه عليه وأنه رجل منور البصيرة ، فبادرت وقبلت يده واستغفرت الله سبحانه .

وكان رجل بإزاء الشـــيخ يوماً فى مجلس الذكر والموعظة ، فسمع الشيخ كلمة من الذكر نالت منه ، فصاح — وكانت عادته — فأنكر ذلك الرجل عليه فى نفسه ، قال : فالتفت إلى الشيخ وقال لى : يا أخى ألا ترى بعضكم إذا ضاع له شىء نفيس يعز عليه فقـــده ثم وجده فجأة كيف يصيح ويزعق ، قلت : نعم يا سيدى ، قال : فكذلك من لم يكن له مطلب إلا الحق متى وثق رجاؤه صـــاح وزعق . وكان حافظاً للقرآن ولكثير من الحديث ، ذاكراً لفقه العبادات ، باحثاً على مسائله كل البحث ، آخذاً فى ذلك كل مأخذ ، مستفتياً أهل العلم فيما يعرض له ما لم يكن حصله ، وخصوصاً الفقيه السطى ، فعندما تعن له مسألة يبادر إلى منزله ويرده عليه ليلا كانأو نهاراً ، فكان أصحابه يتعجبون من بحث الحلفاوى ، وصبر

(١) الصواب : طرف الى اى ابصرنى ..

السطى لبلوغهم الغـــاية القصوى ، إلى ما كان عليه من قبض القدم من اجتماعات العرس وحضور الجنائز . والتعلق بالجود باباً من أبواب الرحمة ، فقد أنزل الله الحمد به فى قرآنه المجيد تشريفاً لهذه الأمة ، فقال : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)[1] . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « السخى قريب من الله ، قريب من النـــاس ، قريب من الجنة ، بعيد من النار. والبخيل بعيد من الله ، بعيد من الناس ، بعيد من الجنة ، قريب من النار ، والجاهل السخى أحب إلى الله من العابد البخيل » .

وقد قال العلماء رضوان الله عليهم : إن الجود هو السخاء ، لأن الله تعالى يوصف بالجود ولا يوصف بالسخاء ، كما يوصف بالعلم ولا يوصف بالعقل ، وحقيقة الجود ألا يصعب عليه بذل . والسخاء عند المتصوفين أول الرتب ، ثم الجود بعده ، ثم الإيثار ، فمن أعطى البعض وأبقى البعض فهو صاحب سخـــاء ، ومن بذل الأكثر وأبقى الأقـــل كان صاحب جود ، ومن آثر غيره على نفسه كان صاحب إيثار . والسخاء بذل لا تتبعه علاقة ، والجود سخاء صدقت فيه اللهجة ، والتذت بموقعه نفس المعطى ، والإيثار قضاء أوجب إمضاءه حسن اليقين .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا ابن آدم ! مالك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو أعطيت فأمضيت ، وما تركته فللوارث » .

وقالت الحكماء: أيها الجامع لا تُخْدَعن ، فالمأكول للبدن، والموهوب للمعاد ، والمُمْسَك للعدو .

وقيل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه: من السيد ؟ ، قال : الجواد إذا سئل ، الحليم إذا استجهل ، الكريم المجالسة لمن جالسه ، الحسن الخلق لمن جاوره .

وكان أسماء بن خارجة يقول : ما أحب أن أرد أحداً عن حاجة ، لأنه إن كان كريماً أصون عرضه ، وإن كان لئيما أصون عنه عرضى .

---

(١) سورة الحشر آية ٩ .

وقال ابن عباس رضى الله عنه : لا يتم المعروف إلا بثلاثة : تعجيله وتصغيره وستره ؛ إذا عجله فقد هناه ، وإذا صغره فقد عظمه ، وإذا ستره فقد تممه .

وقال حكيم بن حزام : ما أصبحت قط صباحاً لم أر ببابى صاحب حاجة ، إلا عددتها مصيبة أصبتها .

وقال بعض الحكماء : المحاسن كلها متولدة عن الكرم ، وخصال الخير من فروعه ، والمحامد ثمره .

٥ — ومن الطبقة الأولى : الشيخ العابد ، المجتهد الزاهد ، الصوام القوام ، المنقطع لعبادة ربه مدة ما أهملته الأيام، وتراخت له السنون والأعوام ، الحاج المبارك أبو الفضل ، محمد بن أبى مدين العثمانى . كان رحمة الله عليه من مجتهدى الزهاد، وأخيار العُبّاد ، انتفع فى رحلته للمشرق بلقاء المشايخ والأكابر ، فتنور ببركتهم الظاهر والباطن ، معروف القدر مشهور البركات من أهل العلم والورع والزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة ، رحل إلى المشرق ورأى الناس ولقى الأعلام وأخذ عنهم ، وله رحلة أحكم تصنيفها ، ووصف فيها عجائب ما رأى وفوائد ما جمع ، ثم انتقى عليه مأثور تهذيب وحميد ترتيب ، وله كلمات تدل على فضله وكبير قدره . حدثنى غير واحد ممن صحبه وخالطه، أنه كثيراً ما كان يقول: لابد فى الطريقة من شيئين : الزهد والمجاهدة .

وكان يقول : إنما الخير خير الآخرة ، فهو الخير الدائم الذى لا يبلى ولا ينقطع .

وكان يقول : من سُد دونه باب التوكل فقد شقى ، ومن فتح له باب حسن الظن بالله فقد رقى .

وكان يقول : الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم مفتاح باب البركة ، وتحت اليقين ببركتها خزائن الألطاف .

وكان يقول : ريض نفسك بالآداب الشرعية، تبلّغك للحضرة القدسية .

وكثيراً ما كان يتلو : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)[1] . ويقول للمريدين : قد عرفنا الله أشرافنا وأهل الفضل منا فى هذه الآية .

وكان رحمة الله عليه كثير التواضع حسن الأخلاق ، ياسر الطعام ، رحيما بالمساكين ، شفيقاً على المستضعفين ، محبوباً مع شدة انقباضه وتوحشه ، يؤثر الزهد . فكان أصحابه يدعونه بأبى الفضل الزاهد ، وما كحب الزهد منقبة . فقد قال صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيتم الرجل قد أوتى زهداً فى الدنيا ومنطقاً فاقتربوا منه فإنه ينطق بالحكمة» . وقال أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه : الأول ترك الحرام وهو زهد العوام ، الثانى ترك فضول الحلال وهو زهد الخواص ، الثالث ترك ما يشغل العبد عن الله وهو زهد العارفين .

قيل: إذا زهد العبد فى الدنيا وكل الله به ملكاً يغرس الحكمة فى قلبه .

وقيل : من جمع ثلاث خصال كان من الأولياء ، الزهد فى الدنيا ، وكرم النفس، وبذل النصيحة لجميع الخلق .

وقال الفضيل بن عياض : جمع الله سبحانه الخير كله فى بيت ، وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا . وجمع الشر كله فى بيت ، وجعل مفتاحه حب الدنيا .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «حب الدنيا رأس كل خطيئة».

الزهد من علامة الثقة بالله .

وقد قيل : من صدق فى زهده ، أتته الدنيا راغمة .

٦ — ومن الطبقة الأولى : الشيخ التقى المنشرح الصدر ، الكبير الجلالة والقدر ، صاحب المعارف والفهوم ، المطلع على كثير من الأسرار والعلوم ، مقتفى آثار الأولياء مقاماً ومقالا ، الشيخ الصالح أبو عثمان سعيد ابن توالا ، مكناسى الدار ، كان رحمة الله عليه عالماً عاملا ، صالحاً فاضلا ، من المتخلقين بأخلاق أولياء الله المهتدين ، ومن عباد الله العباد المجتهدين ،

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .

معروف الحالات ، مشهور البركات ، مبسوط اللسان بالرحمة ، كثير الخشية كثيف الحشمة .

حدثنى غير واحد من فضلاء من والاه ، وعرف سيره وتقواه ، قالوا : لقد رأينا من سر الشيخ رضى الله عنه ، فى مدة موالاته أحوالا لا تصدر إلا عن خدمة المجتهدين ، وتنوير قلوب المهتدين من عذوبة الأخلاق ولين الجانب ، وحسن التربية ، والحذق بالأدب الذى يثمر فى القلوب العجائب ، وكان يؤنس من أتاه ويبسط نفسه إليه بشمول رحمة الله ، ويحبب إليه تقواه ، ويبصره بما فى الرضى بقضائه وقدره بما يفسح فى الأجل وتحمد عقباه ، حتى لا ينصرف من يرد عليه إلا ولا شىء أحب إليه من التسليم .

وقال بعضهم : كنت ألتمس مرضاته من جميع وجوهها ، فحن إلىّ غاية الحنين ، ومكننى من القرب إليه غاية التمكين ، ولقد استرضيته يوماً فرضى عنى ، وانبسط وانشرح إلى ، وتهلل وجهه المبارك وانطلق بالحكمة والرحمة لسانه ، فقال لى : حبيبى أنت خدمتنى لوجه الله تعالى وأحببتنى من أجله ، أشهد الله وملائكته ورسله وإياك ، أنه إن قيل لى فى القيامة يا سعيد ، قم فانطلق للجنة مغفوراً لك أن أقول : يا رب عبدك أحبه فلان وخدمه وأنس إليه من أجلك ، وقد ضمنت له إدلالا على فضلك وجودك ألا أدخل دار كرامتك إلا صحبته ، ثم قال عن قليل : أبشر نرجو الله سبحانه يا أخى أنه قبل ذلك ، وشفعنى فيك ، فوالله ما كان بعد ذلك إلا زمان يسير ، حتى مكن الله الخير من قلبى ، وصرف عنه الشر جملة ، وأنا إلى الآن على تلك الحال وأرجو الله أن أصير إلى ما وعدنى الشيخ رضى الله عنه .

وكان من أهل الزهد والتقشف ، حدثنى بعض ثقات المكناسيين أنه كان جالساً يوماً مع الشيخ رحمه الله ، فدخل عليه رجل وبيده تفاحة ، أو قال إجاصة ، فنظر إليها الشيخ وقال : سبحان الله ، لى نحو العشرين سنة ما أكلت ذلك أو مثله . وكان كثير الاجتهاد فى قضاء حوائج المسلمين : فقل من يأتيه فى شىء إلا ويقضيه الله سبحانه على يديه ، وكان له حظ وافر من المعرفة بتوحيد الله عز وجل .

وعن عائشة رضى الله عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إن دعامة البيت أساسه ، ودعامة الدين المعرفة بالله عز وجل واليقين والعقل القامع» .

وقال الشيخ أبو على الدقاق : المعرفة على لسان العلماء هى العلم ، فكل علم معرفة ، وكل معرفة علم ، وكل عالم بالله عز وجل عارف ، وعند أهل الطريقة الصوفية : المعرفة صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته ، ثم صدق الله فى معاملاته، ثم تنقى عن أخلاقه الرديئة وآفاته ، ثم طال بالباب وقوفه ، ودام بالقلب اعتكافه فحظى من الله بجميل إقباله ، وصدق الله فى جميع أحواله ، وانقطعت عنه هواجس نفسه ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره ، فإذا صار من الخلق أجنبيا ومن آفات نفسه بريا ، ومن المساكنات والملاحظات تقيا ، ودامت فى السر مع الله تعالى مناجاته ، وحق فى كل لحظة إليه رجوعه ، وصار عبد الله عز وجل يعترف إليه بالتسليم فيما يجريه من تصاريف أقداره ، يسمى عند ذلك عارفاً ، وتسمى حالته معرفة .

وقال الشبلى : ليس لعارف علامة ، ولا لمحب شكوى، ولا لعبد دعوى ، ولا لخائف قرار ، ولا لأحد من الله عز وجل فرار .

وقيل: من عرف الله عز وجل صفا له العيش وطابت له الحياة، وهابه كل شىء ، وذهب عنه خوف المخلوقين ، وأنس بالله عز وجل ، وذهبت عنه رغبة الأشياء ورهبتها .

والمعرفة توجب الحياء والتعظيم ، وقيل : أركان المعرفة الهيبة والحياء والأنس .

٧ ــ ومن الطبقة الأولى : الكثير الخوف والخشوع ، المواصل السجود والركوع ، القوام بالليل وقد لاذت الحواس بالهجوع ، الصابر فى ذات الله على ما يقاسى ، الشيخ الفقيه الخطيب أبو الحجاج يوسف بن عمر الأنفاسى ، كان رحمه الله من جلة الفقهاء العاملين ، وأكابر الفضلاء من أهل الدين ، صام حتى نحل جسمه ورق جلده ، وقام حتى تورمت

قدماه ، وله عراقة فى الفقه والصلاح ، فهو فقيه وصالح ابن صالح .
ومن كلامه : أفضل العبادات المراقبة وحفظ الحدود ، وكان يقول : ما أتعب العاصى !يطيع هواه وشيطانه ونفسه ، وهم يكلفونه فوق طاقته ، والطائع لا يطيع إلا الله ، ولا يكلفه إلا ما يستطيع ، وكان رحمة الله تعالى عليه مهتما بمصالح المسلمين .

حدثنى غير واحد ممن يعرف سيره وأخلاقه ، أنه كان إذا جن الليل يخرج من داره التى يسكنها ، وهى المحبسة على الأئمة بالجامع الأعظم بفاس ، فينظف الجامع وينظر فى مصالحها (١) ويباشر ذلك بنفسه قربة لله عز وجل .

ومن بركاته ما استفاض عنه أنه ورد عليه ليلة من الليالى جماعة من الأضياف ، وكان قد صنع لفطره قدر ما يقتاته إنسان من الكسكسو (٢) فلما حضر بين يديه وضع يده على أعلاه وذكر اسم الله سبحانه وقدمه إليهم ، فأكلوا منه بأجمعهم حتى تملوا ، وفضل له من بقيتهم قدر كفايته رضى الله عنه .

ولم يفارقه خوف الله عز وجل والخشية منه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا يدخل النار من بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع» .

وقال صلى الله عليه وسلم : «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً» .

وقال أبو القاسم القشيرى : الخوف معنى وتعلقه فى المستقبل؛ لأنه إنما يخاف أن يحل به مكروه أو يفوته محبوب ، ولا يكون هذا إلا بشىء يحصل فى المستقبل ، فأما ما يكون فى الحال موجود فالخوف لا يتعلق به .

وقال الشيخ أبو على الدقاق : الخوف على ثلاث مراتب : الخوف والخشية والهيبة ، فالخوف من شروط الإيمان ، والخشية من شروط العلم ، والهيبة من شروط المعرفة .

---

(١) استعمال عامى لأن « الجامع » مؤنث فى اللهجة المغربية وقد تركناه على اصله للدلالة على ان ذلك منذ القرن الثامن .

(٢) هو الطعام المغربى المشهور ويقال له اليوم : سكسو .

وقال إبراهيم بن شيبان : إذا سكن الخوف القلب أحرق مواضع الشهوات منه ، وطرد رغبة الدنيا عنه .

٨ ــ ومن الطبقة الأولى : الفقيه العابد التقى الزاهد ، الكبير الشأن والحال ، العظيم القدر والجلال ، المطلع على ما منحه الله من السر المصون ، والعلم المكنون ، الكثير البركات والمعالى ، الشيخ الفقيه الصالح ، أبو محمد عبد العالى الأغزاوى .

انقطع إلى الله تعالى على سنن الورعين والعلماء العاملين ،واحداً فى متعبد بلاده بين أهله بأغزاوة من أرض غمارة على وتيرة واحدة ، وعمل مستدام وتوجّه متصل ، لا يخرج من داره إلا إلى صلاة العيدين ، وأيام تعد له قلائل ، ومن أتاه زائراً استؤذن عليه فربما أذن له فى الدخول عليه فى خلوته ، فلا يزال متحدثاً فى فنون جمة من العلم ، فكان إذا أخذ فى باب من العلم سرد جميع مسائله ،فيقال إنه لايحسن غيره لفقهه فيه ، وحسن تعليمه ووضعه ، وربما كان يتكلم فيسترسل به الكلام فى أبواب من العلم لم يسمع بمثلها ، ثم يعطف فيرجع لما كان بسبيله .

سمعت بحضرته بعض أصحابه يقول : قطع الشيخ نصف عمره المبارك فى قراءة العلم ، ونصفه فى العمل به ، وتوفى رحمة الله عليه وقد نيف على الثمانين ، سنة تسع وستين وسبعمائة .

وأما كرامته رضى الله عنه وبركاته ، فالمثل السائر والخبر المتواتر ، آثر رحمة الله عليه ورضوانه الخلوة والعزلة ، وقد قال أهل العلم من أهل التصوف : الخلوة صفة أهل الصفة ، والعزلة من أمارات الموفقين الجلة ، ولابد للمريد فى ابتداء أمره من العزلة عن أبناء جنسه ، وقيل : إذا أراد الله عز وجل بنقل العبد من ذل المعصية إلى عز الطاعة ، أنسه بالوحدة وأغناه بالقناعة ، وبصره بعيوب نفسه ، ومن أعطى ذلك فقد أعطى خير الدنيا والآخرة .

وقيل : من علامات الابتلاء الاستئناس بالناس .

وقيل السلامة فى العزلة .

(كمل من تعين ذكره فى الطبقة الأولى والحمد لله على تيسيره) .

٩ ـ وأول الطبقة الثانية : الشاب الصالح ، الذى لم تعرف لشبابه صبوة ، ولا لعزمه فى الاجتهاد نبوة ، المشمر عن ساعد الجد أحزم التشمير ، والمقبل على ما يجده عتاداً فى دار الحبور ، تلميذ الشيخ سيدى أبى العباس أحمد بن عاشر رحمهما الله ، الأنجب ، وخلاصته الأخص لديه المقرب ، أبو عبد الله محمد بن الشيخ الفقيه الصالح ، القاضى فى الأحكام الشرعية بسلا . أحمد الزهرى .

ظفر من صحبة الشيخ بالعلق الثمين ، فشد عليها يد الضنين ، وأخذ عنه جميع محمولاته ، فنصحه الشيخ وآثره بتعليمه ، فكانت له مزية ظاهرة ، وإنابة أنوارها باهرة ، ومعرفة زينها تنوير البصيرة ، وحفظها حسن السريرة ، ففاق لداته وأترابه ، وأعلمت الديانة والعفاف أثوابه ، فأصبح منقطع القرين ، تسمه العناية المتلألئة على أسرة الجبين ، عاجله الأجل فى أوائل سنة أربع وستين وسبعمائة ، رحمة الله عليه . وبسببه تم للشيخ من الخلوة بداره كمال مقصوده ، إذ بذل فيه غاية مجهوده ، فقام على شؤونه أكفى القيام ، ونهض بأعبائه ، فكمل له غاية المرام ، واستعان على ذلك بمجاورته وقرب سكناه منه ، إذ كان يشملها درب واحد ، فاقتفى أثره واتبع طريقته من التقشف ، فلبس المرقع ، واستغنى من القوت بما يبقى الرمق ، ورفض ما دون ذلك ، فلم يحتو بيت سكناه إلا على مصلاه لا يسعه سواه ، أخبر متولى تجهيزه أنه ألفى عظام وركيه قد انجرحت لرقاده على الحصير ، وكان من اجتهاده ينام على لوح خشب مضطرب خشية أن يكون ممهداً فيستغرق فى النوم ، فتكيف اضطراب اللوح ليقظته متى طلبت الجوارح كمال الاستكانة يعارضها الاضطراب . فقام لشأنه من عبادة ربه وقراءته ومطالعته وما يخصه .

وكان رحمه الله مجبولا على الحزم يقظاناً ، له فضل قوة وصلابة زائدة ، وتصميم فى الدين ، ونيل وإدراك فى العلم ، وكان من أعظم شغله وكسبه ،

انتساخ الكتب التى كان الشيخ رضوان الله عليه يؤثر قراءتها ، ويأمر بنسخها وتصحيحها وضبطها ، فاستغرق فيها أكثر أوقاته ليلا ونهاراً ، وكان مع ذلك جواداً يؤثر إخوانه على نفسه بما يخصه ، وكان حافظاً لأمر دينه شديد الحوطة مُدَثراً فى مُرَقَّعة إن أصابها شيء بالغ فى طهارتها ، لايبالى ببللها عليه فى كَلَب البرد وتوالى الشتاء، تدوم له المعاناة من ذلك الأيام فيطاولها بالصبر الجميل ، وكان يتناول أمر معاشه بيده ، ويحمل عن الشيخ من ذلك شيئاً فى بعض الأوقات ، وما كان يعد شيئاً من عبادته أعظم من خدمته شيخه واسترضائه بجميع وجوه مراضيه ، حتى بلغ منه كل مبلغ ، ونال من الاستمتاع بنصائحه كل بغية ، توفر حظه من جهاد النفس الذى هو مفتاح السعادة ودليل الهداية ، قال تعالى: « والَّذين جَاهَدوا فينَا لَنَهْدِينَّهُمْ سُبُلَنَا » (١) وفى الحديث : «جئتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، وهو مجاهدة النفس » .

وقال أرباب الطريقة من التصوفة : من لم يكن فى بدايته صاحب مجاهدة ، لم يجد لهذه الطريقة سمة .

وقال الشيخ أبو على الدقاق : من زين ظاهره بالمجاهدة حَسَّن الله باطنه بالمشاهدة .

وكان أحد الأكابر يقول : بُنى هذا الأمر — يعنى طريقة الصلاح — على ثلاثة أشياء: ألا تأكل إلا عند الحاجة ، وألا تتكلم إلا عند الضرورة ، ولا تنام إلا غلبة .

وقال ذو النون المصرى : إنما دخل الفساد على الخلق من ستة أشياء . ضعف النية بعمل الآخرة ، وصارت أبدانهم رهينة لشهواتهم ، وغلبهم طول الأمل مع قرب الأجل ، وآثروا رضى المخلوقين على رضى الخالق ، واتبعوا أهواءهم ونبذوا سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم وراء ظهورهم ، وجعلوا قليل رُخَص السَّلف رضى الله عنهم حجة أنفسهم ، ودفنوا كثير مناقبهم .

---

(١) سورة العنكبوت آية ٦٩ .

وقال أبو العتاهية :

أشَدُّ الجِهادِ جِهادُ الهَــوَى   وما كَرَّمَ النَّفْسَ إلاّ التُّقَى

١٠ — ومن الطبقة الثانية : تِلْوُهُ في درجة الفضل بل الفضيلة والزهد، وَخَلِيلُهُ في طريقة الخير المبلغة للقصد ، القوى الفراسة، الموكل المعارف ، المتغذى بألطاف الأسرار وأسرار اللطائف ، الدائم الفكرة والسُّهاد ، أبو بكر بن الشيخ الصالح الخطيب ، أبي اسحاق إبراهيم بن عباد .

لاحت عليه لوائح الاختصاص، وشم رائحة من نفحات أهل الإخلاص، وكانت له في الاجتهاد طريقة مأثورة ، ومادة من العلم موفورة ، فألف فيما لاح له من الحقائق مصنفاً لم يظهر بعد وفاته .

حدّثني جماعة من أصحابه ، قالوا : سافرنا معه فآثرنا بمركوبه ، وخص كل واحد منّا من ذلك بحسب ما افتقرت إليه قواه ، فكنا لا نجد ضعفاً ينتهي بنا إلى العجز ويشرف من تَبِعَتِه على النكال ، إلا رفع عنه المشقة ، وتداركه بنوبة ركوب ، وهو بين يدى مسيرنا على قدميه ، يلاحظ أحوالنا ويهتم بشؤوننا ويتكفل بما يعن من أمورنا ، ومتى حضر وقت الطعام يقدمه ويعزم علينا في الأكل ، ويتشاغل عنا بما يَطْرُق من مهمات السفر ، ويجهد في تملّينا من الطعام إلى حد الغاية ، فإن فَضَل شيء أجزأ به ، وإلا بقي على ريقه . وكان يقصد لقوته ما زهد فيه أربابه ونبذوه . فيلتقط طعامه من الممرات ومسيل المياه وأماكن المطروحات ، ولا يدخر ما زاد على سد الجوعة ، ويشتمل ساتراً من ليق العزف ، وليس بينه وبين لحمه حائل ، كان قبله هذا الساتر بعينه للشيخ يوسف بن عمر الأنفاسي المتقدم الذكر فصار إليه بعد وفاته . وكان يقول : من أكل المباح أربعين يوماً نطق بالحكمة.

وسألته بما أدركت ما أدركت من المكاشفة ؟ فقال لي : بالخلوة والصوم وأكل الحلال . فسألته ما معناها ، أو كيف يدرك الولي ذلك الحظ من الاطّلاع ، فقال لي : لا يُعرف ذلك إلا بالذَّوْق ، يعني لا يعرفه إلا من اتصل به وشاهده . وضرب لي لذلك مثلا فقال : أرأيت لو أن شخصاً خُلِق

أعمى لا يبصر شيئاً ، فأردت أن توقع فى نفسه معنى لون من الألوان المرئية ، بعد أن يسألك عن شيء منها فيقول لك ما معنى اللون الأحمر مثلا ؟ فتقول له : اللون الأحمر لون الدم . فيقول لك : وأى لون هو لون الدم ؟ فتقول له لون الشقائق ، فيقول لك ولون الشقائق أى لون هو ؟ فلو انتهيت إلى تعداد كل لون أحمر وُجِد ، ما أمكن أن يَعْرفه ولا يقع فى نفسه إلا إن رآه ، وكذلك ذلك الباب ، بأى شيء تمثل لك فى شيء خلقت عنه أعمى ؟ فإن يسّر الله سبحانه عليك وتُبْصِر ببصيرتك فإنك سترَاه عياناً .

وكان له قدم فى الإيثار ، فإنه آثر بأكثر ميراثه من والده ، وما زال دأبه السخاء بما كان يكتسب بعد ذلك ، ويصنع الطعام من كسبه للفقراء والضعفاء من ذوى الدِّين والفضل ، ويتناول تقريبه إليهم بنفسه ، وكان متواضعاً شفيقاً ، فقد بلغنى أن نملة لصقت فى ثوبه فى موضع جلس فيه ، ولم يعلم بمكانها حتى وصل إلى موضع آخر ، وبين الموضعين مسافة بعيدة ، وكان مسافراً فرآها وعلم أنها من ذلك الموضع الأول ، فرجع حتى ردّها إلى موضعها ، وله من أمثال ذلك كثير .

والفراسة مقام جليل، وحظ من الخير جزيل، خص الله أهله بالاعتبار فقال وهو أصدق القائلين : «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ»(١) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله عز وجل» .

وقال المشايخ رضوان الله عليهم : الفراسة خاطر يهجم على القلب فينفى ما يضاده ، وهو على حسب قوة الإيمان ، فمن كان إيمانه أقوى كانت فراسته أكثر تمكناً .

وكان الكتانى من المتقدمين يقول : الفراسة مكاشفة اليقين ومعاينة الغيب ، وهى من مقامات الإيمان .

وكان شاه الكرمانى متمكن الفراسة لا تخطىء فراسته ، ويقول : من غض بصره عن المحارم ، وأمسك نفسه عن الشهوات ، وعمر باطنه بدوام المراقبة ، وظاهره باتباع السنة وأكل الحلال لم تخطىء فراسته .

---

(١) سورة الحجر آية ٧٥ .

١١ ـ ومن الطبقة الثانية : رفيقهما فى السير على طريقه الأمم ، الفاضل الخير العلم ، الطالب المشارك ، الصالح المبارك ، ثالثهما فى درجة الفضل والصلاح ، أبو زيد عبد الرحمن بن الفقيه الجليل أبى الضياء مصباح .

كان من أقرانهما اجتهاداً وجدا وورعاً وزهدا ، وكان مبسوط أسرة الوجه لا تلقاه إلا ضاحكاً مستبشراً ، يغلب عليه حسن الظن بالله تعالى ، وكان الشيخ سيدى أبو العباس بن عاشر إذا رآه مال إليه وانشرح عند لقائه ، وكذلك كان الغالب مع كل من يلقاه ويراه لا ينصرف عنه إلا بزائد مسرة وطيب نفس . محبًّا فى أولياء الله تعالى ، طامعاً فى سعة رحمة الله ، شاكراً لما لله تعالى عليه من الآلاء والنعماء ، منطلق اليد بالبذل ، مُحْسِناً لأصحابه بالقول والفعل ، وكان من قوله : رجال الدنيا هم رجال الآخرة إذا وفقوا لحسن الظن بالله تعالى والجد فى العمل له .

وكان رحمة الله عليه قوى النفس ، معمور القلب بالحق . وكان من خواص أصحاب الشيخ أبى العباس بن عاشر ، توفى سنة أربع وستين وسبعمائة ، ودفن وراء الجامع من سلا .

و كان صاحب اللهجة فى الشكر ، وشكر الله سبحانه متكفل بالمزيد ، قال الله تعالى : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ » (١) .

وقال عطاء : « سألت عائشة رضى الله عنها عن أعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبكت وقالت ، وأى شأنه لم يكن عجباً ، إنه أتانى ليلة فدخل معى فى فراشى حتى مس جلدى جلده ، ثم قال : يا ابنة أبى بكر ذرينى أتعبد إلى ربى ، قلت : إنى أريد قربك ، ثم أذنت له فقام إلى قربة ماء فتوضأ ، ثم قام يصلى فبكى حتى سالت دموعه على صدره ، ثم ركع فبكى ، ثم سجد فبكى ، ثم رفع رأسه فبكى ، فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فأذنه بصلاة الصبح . فقلت يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً . ولم

(١) سورة ابراهيم آية ٧ .

لا أفعل ، وقد أنزل الله عز وجل عليّ : « إنّ في خَلْقِ السَّمَوات والأرْضِ واخْتِلاَفِ اللَّيْلِ والنَّهارِ لآيَاتٍ لأُولي الألْبَابِ »(١) — الآيات — .

وقيل حقيقة الشكر : الاعتراف بنعمة المنعم ، وقيل حقيقة الشكر : ألاّ يُعْصَى الله بنعمه (٢) .

قال داود النبي عليه السلام : إلهي كيف أشكرك ، وشكرى لك نعمة من عندك ، فأوحى الله عز وجل إليه : الآن قد شكرتني .

وفى الخبر : « أول من يدعى إلى الجنة الحامدون لله على كل حال» .

١٢ — ومن الطبقة الثانية : التائب الصابر ، التابع لسنن الأكابر . حامل القرآن ،المتصف بأوصاف أهل الإيمان ، الموصوف بالخير المعنوى والحسى ، الشيخ المبارك أبو الحسن على البلنسى ، من أصحاب سيدى أبي العباس بن عاشر ، سلك على سبيله وتأسى بطريقته ، وتمسك بهديه الصالح ، ونزع منزعه ، وكان فقيهاً تقياً ، وصالحاً مباركاً ، مثابراً على قراءة القرآن والعلم ، دائم الصلاة والصوم ، كانت له حالة فى الخير مستحسنة ، ووتيرة محمودة ، وتواضع مقبول ، وتسليم يلازمه الرضى ، وكان غير مكترث فى أمر الدنيا ، فى شغل عن لذاتها بعبادته ، غير ملتفت لها ولا بزهرتها ونضارتها ، حسن التلاوة لكتاب الله عز وجل ، قائماً على الأداء بحسن نسخه ، حريصاً على فهم معناه ، محافظاً على الرفق بما تنطرح عليه أشعة بصره ، فكان له زيناً . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما كان الرفق فى شيء إلاّ زانه ». فكفى بذلك فضلا وكمالا . توفى سنة أربع وستين وسبعمائة ، ودفن وراء الجامع من سلا رحمة الله عليه .

١٣ — ومن الطبقة الثانية : مظهر الألطاف الخفية ، وصاحب الحالات السنية ، الكثير الصوم والصلاة ، الشيخ المبارك «فاصكاة» .

أصله من قرية بظاهر سلا يقال لها «أقرميم» . كان من أصحاب سيدى

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩٠ .

(٢) فى ك : الا يعصى المنعم بنعمه .

أبى العباس بن عاشر ، وكان عبداً صالحاً ملطوفاً به فى جميع أحواله ، فكانت جميع حالاته عجباً ، وذلك أنه كان مستضعفاً فى بدنه رقيق النفس ، كثير الخشوع مستتر الحال ، وكانت له مع ذلك مقامات سنية ، وكرامات كثيرة عالية .

سمعت عنه أنه زار قبر الشيخ أبى يعزى بتاغية من موضعه بظاهر سلا ، فمشى ورجع فى وقت واحد ، فسألته عن ذلك ، وأقسمت عليه أن يخبرنى بذلك السر ، فقال لى يا أخى : ما نعرف كيف جرى ، إلا أنى نويت زيارة الشيخ فخرجت من خلوتى برسم ذلك ، فأصابتنى فى الحين شبه سِنَة من نوم ، فما أفقت إلاّ على قبر الشيخ ، فحمدت الله تعالى وقضيت أرَبى من التبرك بذلك القبر المبارك ، ثم نويت الرجوع فاتفق لى مثل الاتفاق الأول.

وكانت الوحوش تأنس به فى خلوته ، وبات ليلة فى سلا ، وصلى معنا العتمة ، ثم إن بعض الأصحاب كانوا مسافرين وَرَدُوا على موضعه بظاهر البلد وهم يظنون أنه ثم ، فلما قربوا من الموضع تعرض لهم الأسد ، قالوا : فإذا بالشيخ فاصكاة يحول بيننا وبينه ، وأضافنا تلك الليلة ، فكانت هذه الكرامة لهذا الشيخ من أعجب العجائب وأغربها .

توفى رحمة الله عليه سنة أربع وستين وسبعمائة ، ولم تكن له حالة تغلب عليه غير رقة القلب والخشوع ، وأنعم بهاتين الحالتين ، وما أعلاهما وأجل قدرهما ، نفعنا الله به آمين .

١٤ — ومن الطبقة الثانية : الواله الحزين ، مواصل البكاء والأنين ، صاحب الأسلوب الغريب ، والحال العجيب ، والصالح الأَنْزَه ، الشيخ أبو محمد حسين الأبله .

أصله من ظاهر سلا من موضع يقال له «أسْمير» ، لقى سيدى أبا العباس ابن عاشر مرات عديدة ، وكان الشيخ يسلم له فى حاله ، فإنه كانت له أحوال غريبة ، وكرامات كثيرة ، ونزعات عجيبة شاذة الطريقة ، نادرة النوع ، وكان نحواً ممن يسميه المتصوفة عبد حال مغلوب عليه ، حتى لايشك

من رآه أن به مساً من الجن أو خالط عقله فساد ، وكان استولى عليه من تعظيم جلال الله سبحانه أمر عظيم ، صرفه عمن سواه فاستخلصه لنجواه ، فكان فى أكثر الأوقات لا يلفى إلا ذاكراً لله تعالى رافعاً بذلك صوته ، وأكثر ما كان يجرى على لسانه قوله لا ترى إلا الله ، ما ثم إلا مولاه ، فإذا أنكر عليه أحد مايبدو عليه من الصياح والزعقات والذكر بجهارة الصوت ، يقول يا أخى : ما هو باختيارى ، وإنما أنا عبد مأمور ، إن أمرت بشىء فعلته . وكان لا يقرله قرار ، وإذا سمع شيئاً من الذكر زعق حتى يظن أنه مات ، ثم يفيق ، وكان مشهود البركات مشهور الكرامات .

وكان له حظ من استجابة الدعوة والاطلاع على شىء من الخفيات ، إذا لمس بيده مريضاً شفى ، وإذا قرأ فى أذن مصروع أفاق ، وإذا دعا على أحد هلك ، سرق له رجل يوماً قرعة من قرعه كان يزرعه بيده ، فقيلت له فدعا عليه ، فأصابه وجع فقضى عليه فمات ، فقيل له كيف تقتل نفساً بسرقة قرعة ؟ فقال : قتله الله على هتك حرمة عبد من عبيده ، ماله جهة إلا جهته . وبات ليلة معنا فى سلا، فى دار بعض الإخوان ، فما كان إلا أن مر من الليل جزء حتى قام بصحن الدار وجعل يصيح بأعلى صوته ، منبهراً لشىء لا نعلمه ، وأشار لجهة داره (بأسمير) . فسألناه عن ذلك فقال : إن بعض أصحابنا وصلوا الآن لموضعى بأسمير ، فتعرض لهم الأسد فصحت به . فلما أن كان من الغد فصحنا عن الأمر فوجدناه كما قال ، فسبحان من إذا أطاعه عبده طوع له كل شىء ، لا إله إلا هو الحكيم العليم .

توجه للبلاد المشرقية سنة خمس وستين وسبعمائة ، ولم يسمع له بعد ذلك خبر ، ولا أعلم أهو حى أو قبضه الله تعالى إليه ، وكان يغلب عليه الأسف [1] والحزن .

قال الشيخ أبو القاسم القشيرى : الحزن يقبض القلب عن التفرق فى أودية الغفلة .

---

(١) لعله الأسى .

وقال أبو على الدقاق : صاحب الحزن يقطع من طريق الله تعالى فى شهر ، ما لا يقطعه من فقد حزنه فى سنتين .

وفى الخبر : «أن الله تعالى يحب كل قلب حزين» .

وفى التوراة : إذا أحب الله عبداً نصب فى قلبه نائحة ، وإذا أبغض الله عبداً جعل فى قلبه مزمارا .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان مواصل الأحزان دائم الفكرة .

وقيل : القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب .

وقال سفيان بن عيينة : لو أن محزوناً بكى فى أمة ، لرحم الله تبارك وتعالى تلك الأمة ببكائه .

١٥ — ومن الطبقة الثانية : مستنشق مَهَابِّ الرحمة ، والمكب على الأعمال التى هى مظان الوصول إلى الجنة ، الشاب الصالح المواسى ، أبو الربيع سليمان المكناسى .

كان رحمة الله عليه من أصحاب الشيم الزكية ، والمناقب المرضية ، أقام مدة يقضى فى كل يوم وليلة صلاة شهر ، أشل الرجل الواحدة ، وكان متسع الأخلاق ، منشرح الصدر ، لين الجانب ، حسن الطريقة ، جميل العشرة ، صادق اللهجة ، حقاً كله ، لا يفتر عن عمل من الخير ، مصروفاً عما لا يعنيه ، متواضعاً خاشعاً ، خيراً مجتهداً ، زاهداً ناسكاً عابداً ، كان قبل وفاته بثلاثة أيام ونحوها ، صحيحاً لا يجد ألماً ، فانقلب ما كان يظهر على محله من البسط قبضاً ، ومن الانشراح لإخوانه انكماشاً منهم ، وأكب على قراءة القرآن من المصحف ، والتزم صون النطق بما دون القرآن والذكر ، فعجبنا من حالته تلك ، على خلاف ما نعهده منه من الأنس به ، فأتى إليه بعض الأصحاب يطلب بسطه ومراحه ، فانتهره وأغلظ إليه فى القول ، وقال له يا أخى : إن الحق قد أقبل ، وإن الباطل قد ذهب ، وما أرى أجلى إلا قرب ، فكن فى شأنك ودعنى فى شأنى ، فوالله ما كان بينهما إلا نحو من

ثلاثة أيام حتى قبضه الله إليه ، سنة أربع وستين وسبعمائة ، ودفن مع أصحابه وراء الجامع من سلا رحمة الله عليه .

وكان كثير الخشوع يرجو بركته – أي الخشوع – . قال تعالى : « قد أفلَحَ المُؤْمِنُونَ ، الذينَ هُم فِي صَلاَتِهِم خَاشِعُونَ »(١). وقال عز وجل : « وعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوناً ، وإذَا خَاطَبَهُم الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا » (٢) . قيل معناه : متواضعين خاشعين : والخشوع انكسار القلب من هيبة الرب .

وقال محمد بن على الترمذىّ : الخاشع من خمدت نيران شهوته ، وسكن دخان صدره ، وأشرق نور التعظيم فى قلبه ، فماتت شهوته ، وحيي قلبه فخشعت جوارحه .

١٦ – ومن الطبقة الثانية : الشاب التقىّ ، البر الزكىّ ، واحد النجباء ، الظاهرة عليهم مخيلة الصلحاء ، الفقيه الصالح الأبر ، أبو الربيع سليمان بن يوسف بن عمر .

نخبة أهل عصره ، وواحد أهل زمانه ، الناسك الورع المجتهد ، الجامع إلى فضل الطبع وكرم الأخلاق والخلال مأثور الأفعال وسنى الأعمال . والمنتهى من السبق فى حلبة المتجارين فى ميدان العرفان إلى غاية تفنن الكمال ، وارث الخير ومزكيه بالمحامد البارعة التفصيل والإجمال ، معمور الباطن بالحق معمور الوقت بالخير ، كامل المروءة، مكتره الفساد ، ناصح لعامة المسلمين ، مهتم بشأن أهل الدين ، سالك فى ذلك سبيل العارفين ، لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، كثير المواساة ، شديد الحرص على عمل الطاعات ، نشأ نشأة صالحة ، شاب لم تعرف له صبوة ، يقظان حازم متفقد لإخوانه ، متعطف على جيرانه ، وطيء الأخلاق ، سهل الجانب ، حميد السيرة ، جار فى العبادة على وتيرة لا تعرف الميل وعادة كريمة ، آخذ بالتوسط فى جميع

(١) سورة المؤمنين آية ١ ، ٢ .
(٢) سورة الفرقان آية ٦٣ .

أموره ، عالى الهمة فى طاعة ربه ، تهش له القلوب ، ولا تكاد تنصرف عنه الأحداق ، معظم فى الصدور ، محبوب عند الخاصة والجمهور ، وكان والده رحمة الله عليه يتعرف فيه مخايل النجابة ، وكان يقول : إنه سيكون لابنى سليمان شأن ، وذلك أنه كان فى مدة رضاعه متى كانت أمه جنباً لا يقبل ثديها حتى تتطهر .

وحالته رضى الله عنه عجب ، تفقهت عليه فى شىء من رسالة ابن أبى زيد القيروانى ، وسمعت منه رعاية المحاسبى ، وبعضاً من كتب التصوف ، ولم يزل يظهر عليه فى حلقات العلم من علو الإدراك ومحمود الألطاف ، والتبرى من حظ نفسه وترك المرآء والجدال ، وجودة النظر ، وإصابة الفهم ، وقصد المعانى ، وقرب المأخذ ، ما انقطع به عن القرين وبذ أصحابه ، وله من لطف العبارة وبيان القول وإظهار الحجة أوفر نصيب ، فلم يزل مع إخوانه يرحمهم ويحفظ قلوبهم .

ومن حالته الغريبة وأخلاقه الكريمة ، تفقد أحوال من غاب ومن حضر من إخوانه ، وتكفلهم واستسلاف ما يعينهم به إن لم يكن على ملكه ، فيدفع عنهم مشاق الاحتياج ، يفعل ذلك تبرعاً من غير سؤال ، سجية وكرم جبلة .

فأما ما أظهره الله عز وجل عليه من كرامته التى تبرهن على كمال فضله وعظيم مزيته عند ربه ، وتقيم الدليل على صدق حاله : ما حدثنى به أبو زيد عبد الرحمن الطراز ، وهو خاص به وقائم على خدمته ، قال : كنت جالساً يوماً بحانوتى فمر بى سيدى سليمان ، واستدعانى فنزلت إليه مبادراً ، فتقدم وصرت خلفه ولا أعلم أين يريد ، إلى أن خرجنا على باب الحيسة من أبواب فاس ، وانتهينا إلى موضع فوق الطريق ، فجلس وجلست بين يديه مدة ، فمر بنا رجل وبين يديه دابة عليها حمل إدام ، قال : فلما رأى ذلك الرجل نهض ونهضت معه ، فأقبل على الرجل يحادثه ويؤنسه إلى أن دخلنا على الباب ، فبادر البوابون إلى الدابة ، فلما رأوه تأخروا عنها ، وتقدم هو ، وتأخرت

أنا ، وتأخرت الدابة ، فقام أحد البوابين وقال : لابد أن أرد هذه الدابة ، وتناول رجوعها وضربها بيده فقلت : ألا تستحى وتعلم أنها جازت فى حرمة الشيخ سليمان ، فلج ساعة ثم خلى سبيلها ، فأبطأت عنه ثم لحقته ، فسألنى عن إبطائى ، فقصصت عليه القصة ، فقال لى : سبحان الله وفعل ذلك ؟ فقلت : نعم . فقال : إنما أضر نفسه ، فانصرفنا فوالله ما كان بيننا إلا أن أقر بى المجلس فى حانوتى ، حتى أتانى البواب مستغيثاً بى ، معلق اليد ، فقلت له : ما الخبر ، فقال لى : يا سيدى لما انصرفتم أصابنى وجع مبرح ، فمددت بيدى آخذ درهماً أبعث به لشراء دواء أدفع به ما أصابنى من الألم ، فوجدت عوضاً من الدراهم عقرباً فلسعتنى ، فها أنا مشرف على الهلاك إن لم يتداركنى الله برضى الشيخ سيدى سليمان ، وببركته دعائه الصالح . قال : فانصرفت معه إليه وأخبرته بالقصة ، واستعطفته ورغبت منه فى الدعاء له ، وقلت له : يا سيدى إنه يتوب إلى الله تعالى ، فاستدعانى بحناء فرقاها وتفل عليها ، وأمرنا بوضعها على موضع الألم . فوالله ما تمت تلك الليلة حتى سكن وجعه ، وذهب بأسه ، والحمد لله .

وحدث الشاب أبو الوليد إسماعيل بن يوسف بن الأحمر ، قال : ما رأيت أعجب من بركة سيدى أبى الربيع سليمان ، وذلك أن أهلى من عادتهم أن يصيبهم فى رأسهم طارق ووجع مبرح ، أعيا الأطباء وأعجز الأدوية ، فأزمن ذلك وتكرر عليها ، فأصابها مرة فأشرفت على الهلاك ، ففزعت لبركته وقصصت عليه القصة ، فكتب لى تميمة ، فوالله ما وضعتها على رأسها إلا وسكن الوجع لحينه ، وذهب والحمد لله .

وحدث بعض جيرانه أنه قال : أصابنى ليلة رمد فى عينى فأوجعنى وأسهرنى ليلتى تلك ومنعنى نومى ، فلما أصبحت سرت إلى التبرك بسيدى أبى الربيع مسرعاً ، فشكوت له ما نالنى من ألم الرمد ، فوضع يده المباركة على عينى وتعوذ عليها ، فشفانى الله تعالى ودفع عنى شر ما كنت أجد والحمد لله على ذلك .

لم يفارق التسليم فى حال من أحواله من لدن نشأ على ما نشأ عليه من الطهارة والعفاف .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «سبعة يظلهم الله يوم القيامة بظل عرشه ، يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل معلق قلبه بالمسجد إذا خرج حتّى يعود إليه ، ورجلان تحابا فى الله واجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتّى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه » .

وقال المشايخ رضى الله عنهم : أصل العبودية ترك الاختيار ، وشاهدها ظهور الذل والافتقار .

ومن مكارم الأخلاق أن يكون العبد أبداً ساعياً فى أمر غيره ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا يزال الله عز وجل فى حاجة العبد ما دام العبد فى حاجة أخيه المسلم» .

وقال أبو علىّ الدقّاق : كمال هذه الصفات لا يكون إلاّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كل أحد فى القيامة يقول نفسى نفسى ، وهو صلى الله عليه وسلم يقول أمتى أمتى .

وقال الشيخ الاستراباذى : إنما سمى أصحاب الكهف فتية ، لأنهم آمنوا بربهم بلا واسطة ، قال تعالى : «إِنَّهُم فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وزِدنَاهُم هُدى» . (١)

وقال الجنيد : الفتوة كف الأذى وبذل الندى .

١٧ — ومن الطبقة الثانية : الكثيف جلباب الحياء ، المكب على ما يعد لدار البقاء ، صاحب الصدر السليم ، والنظر المستقيم ، المعطى للخير رَسْل الانقياد ، أبو عبد الله محمد بن عباد .

---

(١) سورة الكهف آية ١٣ ..

من أشد المريدين مروءة ، وأكثرهم حشمة ، وآثرهم للخلوة ، وأدأبهم على مطالعة كتب العلماء ، ومصنفات الفضلاء ، وله مأثور صحبة مع الشيخ أبي العباس بن عاشر ، ومرافقته مع الزهرى المتقدم الذكر ، وأخيه أبي يحيى بن عباد . وكان الشيخ رحمه الله يمهد له كرامة، ويلحظه بعين عناية ، ويقرر نجابته عند الخاص والعام ، ويشهد له أصحابه بيمن النقيبة وسلامة الجيب وكرم الفطرة . مشغول بما يعنيه ، ذو حظ من العلم ، منور البصيرة حسن الاهتداء ، وقور السمت ، على الإدراك، ثاقب الذهن، خير كله ، ظاهره وباطنه فى الخير سواء ، وأحواله فى الخيرات تزيد ، وباعه فى الفضل يمتد ، له همة متشوفة إلى الاطلاع على غرائب العلوم ، وأكثر تعبده الاشتغال بالقراءة ، فأوقاته مستغرقة فى مطالعة الكتب والتمتع بفنون العلم ، مؤثر للصمت، وقد قيل: إن الصمت مقام من مقامات الأولياء ، وصفة جليلة من صفات الحكماء ، وبه يرتفع الأذى .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذى جاره ، ومن كان كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» .

وعن عتبة بن عامر قال : «قلت : يا رسول الله . ما النجاة ؟ قال : احفظ عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك» .

وقال بعضهم : الصمت لسان الحكمة .

وفى الحديث : «الصمت حكم وقليل فاعله» .

وفى الحديث : «من صمت نجا» .

وقال حكيم : تعلم الصمت كما تعلم الكلام . فإن الكلام يهديك ، والصمت يقيك .

وقيل : من عد كلامه من عمله ، قل كلامه إلا فيما يعنيه .

وقال ابن مسعود : ما شيء بطول السجن أحق من لسان .

١٨ – ومن الطبقة الثانية : الخير الفاضل العالم العامل الزاهد فى الدنيا وزهرتها ، الراغب فى الآخرة ونعمتها ، الحاج الأبر ، المبارك الرجراجى أبو عمر .

نزل فاساً وهو بها حتى الآن ، من أقران محمد بن عباد علما وورعاً وفضلا ، وهو من الفقهاء الصالحين والعلماء العاملين ، حج على قدم التجريد ولقى الأكابر فى وجهته تلك ، ورأى العلماء واقتبس من أنوارهم ، واستفاد من فوائدهم ، وعرضت عليه أمور من الدنيا كثيرة ، فتورع عنها وأبى أن يقبلها ، واقتنع بالكفاف ، وآثر الخمول ، واختار الفقر ، وتدرع بالسلامة ، وسلك سبيل العافية .

وله حالات مشهورة ، وأفعال مرضية ، وورع محمود .

سمعت عنه من ورعه وتحفظه وتوقيه : أنه اكترى فى وجهته للمشرق حملا يحمل عليه ما يضطر إليه وقت دخوله البرية ، فبعد أن حمل عليه ما احتاج بمرة ، نزع سرواله وغسله وجعله ينشف على كتفه ، فقيل له يا سيدى : ألا تجعله على الحمل ، فقال لم أشترطه فى الكراء . ولم تكن له حالة إلا الأخذ فى قراءة العلم ، نفعه الله ونفع به .

١٩ – ومن الطبقة الثانية : الفقيه الصالح ، الخير الناصح ، الحسن السمت والهدى ، الفاضل البر التقى ، أبو زيد عبد الرحمن البسكرى .

فقيه مدرس وعالم عامل زكى عاقل، نزل فاساً وهو بها حتى الآن ومن أتراب الرجراجى وأحد فضلاء الوقت وممن يشار إليه بالصلاح والفضل ، صابر محتسب مقتصد فى أمره ، راض بخالة العيش ، حذر فى كسبه ، حسن الطريقة ، منور السريرة ، دائم الاجتهاد ، هادئ الروعة ، محمود النزعة ، يغلب عليه تقوى الله عز وجل ، والتقوى هو الحبل الأقوى ، وأصل الخير كله ، وينبوع البركات ، وباب الصلاح ، ومفتاح علم النجاح . قال الله تعالى : «واتَّقُوا اللهَ ويُعَلِّمُكُمُ اللهُ »(١) . وقال تعالى : «ومن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجاً.وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب»(٢) .

(١) سورة البقرة آية ٢٨٢ .
(٢) سورة الطلاق آية ٢ ، ٣ .

٢٠ ــ ومن الطبقة الثانية : المنقطع للعبادة ، الظاهر الفضل والسيادة المشتغل بما يعنيه من أمره ، المجتهد فى تطهير نفسه وقلبه ، نجيع الورعين من جملة الأخيار ، الشيخ أبو محمد عبد الله بن جرار .

أحد فضلاء الوقت الموسومين بالفضل والصلاح ، وهو من أصحاب الشيخ الصالح سيدى أبى العباس بن عاشر رضى الله عنه ، وممن اقتفى سيرته وسلك طريقته فى ورعه وتقشفه حذوك النعل بالنعل ، وهو إلى الآن منقطع فى الفيافى والقفار ، مُختَلٍ فى نفسه وأهله ، مقتصر على صلاح شأنه من أمر دنياه ودينه ، رضى السيرة ، حسن السريرة ، مُحصل لِحَظٍّ من العلم ، تارك للفضول من العيش ، مواظب على الخيرات ، عامل للصالحات ، انتهى إلى رتبة من النسك عظيمة ، وترقى إلى درجة من العبادة جليلة ، فلاح له من أنوار الطاعة بوارق ، وأشرق عليه من نورها شارق ، وهو إلى اليوم على قدم من الصلاح عال .

حدّث عنه فى الوقت جماعة من فضلاء الفاسيين بما هو عليه من الاجتهاد الذى ملأ أبصارهم وبصائرهم ، تعظيما له فوق ما كان يظهر منه ، وأنه صار فى حد ظهور الكرامة على محله .

حدثنى بعضهم قال : لما توجهت أنا ورفيق لى خاصين دون الجماعة لزيارة الشيخ أبى محمد ، ضللنا عن الطريق ونالتنا من ذلك مشقة ، ثم اهتدينا فبلغنا موضعه ، فبنفس ما وردنا عليه صادف ورود جماعة من الفاسيين فى ساعة واحدة ، وسلمنا عليه أجمعين ، فقالوا له يا سيدى : لقد ضللنا عن الطريق ونالنا من ذلك مشقة عظيمة ، فقال لهم ونظر إلينا متبسما : هؤلاء شقوا أكثر منكم ، ولم نكن نحن نخبره بما جرى لنا ، فعلمنا أنها منه مكاشفة وكرامة . ثم قال : وعسى أن يكون الأجر قدر المشقة بفضل الله تعالى وجزيل إحسانه .

٢١ ــ ومن الطبقة الثانية : الصالح الجليل القدر ، المواظب على الصلاة والصيام والذكر ، الكثير الخشية والإشفاق ، الشيخ العابد أبو إبراهيم إسحاق .

من سكان فاس ، من جلة عباد الوقت وأخيار فضلائه ، وممن يرغب فى بركة دعائه ويرتجى قبوله ، فقيه جليل ، وناسك مجتهد ، يغلب عليه الانقباض والخوف من جلال الله تعالى . وهو إمام الفضيلة فى عدول فاس القرويين فى مسجد الصديني ، لقيته وتبركت به والتمست منه الدعاء ، ذو شمة مباركة يلوح عليه الخير والصلاح ، وطريقته حسنة تتفرس فيها مخايل النجاح ، وحسبك بهاتين الخلتين مقاماً ، وكرامة ورفعة وفضيلة ، فمن صلح للخير تمت مروءته ، وكملت فضيلته ، ووجب على الخاص والعام تعظيمه وتكريمه .

٢٢ — ومن الطبقة الثانية : الشيخ الصابر المحتسب ، الصوام القوام على مر السنين والأعوام ، الكثير البركات والفضائل ، أبو البقاء يعيش المواصل .

مصمودى الأصل ، زكى الطريقة ، قوى المجاهدة ، كثير السياحة ، عجيب السيرة ، عطش نفسه ثمانى عشرة سنة لم يشرب فيها ماء ، بل كان إذا أفرط عليه الأمر يحسو حشيش الشعير يصنع له إذا حل بمعروف (١) . وهو معروف عظيم ملحوظ بعين الجلالة . لقى المشايخ الكبار ، و لقى الشيخ سيدى أبا العباس بن عاشر ، وما زال على ملازمة طريق الخير والمثابرة على سبيل البر ، مشتغلا بزكاة نفسه ، مصروفاً لمعالجة قلبه ، حافظاً لكتاب الله عز وجل ، وكانت له بداية اجتهادية ، وحالة مستحسنة ، والحالة الغالبة عليه معالجة النفس والهوى ، والصبر على مقاساة المشقة والبلوى وترك الشهوات ، واقتفاء سبيل الصالحين ومنهاج العابدين .

قال مالك بن دينار رضى الله عنه : من غلب شهوة الدنيا فذلك الذى يفر الشيطان من ظله .

وقال بعض المشايخ : إن أهل النار غلبت شهواتهم على حميتهم ، فلذلك افتضحوا وحل بهم البلاء .

---

(١) المعروف فى اصطلاح المغاربة : الوليمة ..

٢٣ – ومن الطبقة الثانية : الشيخ الخائف الباكى ، الصابر فى ذات الله سبحانه فليس يرى بالشاكى ، الحسن القول والفعال ، أبو الربيع سليمان صاحب الحال .

أصله من بنى يازغة ، نزل فاساً وهو بها إلى الآن ، وسكناه منها بجهة يقال لها عيون الكرازين ، فجرت عليه نسبته إلى هذا الموضع ، أحد فضلاء الوقت المعروفين بالصلاح ، الذين تلتمس بركتهم .

صحب سيدى أبا عبد الله الحلفاوى ، ولقى سيدى أبا العباس بن عاشر ، ومن فى زمانه فى طبقته من الأكابر فى سلا ، ولقى جميع أصحابه هنالك ، وكان شيخه الذى أخذ عنه الطريقة : الشيخ الكبير الشان ، أبا محمد عبد الله التكرورى ، وكان من مشاهير المتبركين بهم من أقران سيدى عبد الله اليابورى بسلا ، وكان موضع سكناه بجامع الصابرين من فاس ، وكان له أحوال سنية ، ولسان فى علم التصوف بليغ ، حسن العبارة لطيف الإشارة . دقيق النظر ، على قدم من التجريد ، وكان له مجلس للعلم والتذكير ، يحضره أكابر الوقت مثل الفقيه أبى إسحاق اليزناسنى ، والفقيه أبى الضياء مصباح ، ونظائرهم من أهل الفضل والفقه .

وسمعت أن بعضهم كان يقول : كنا إذا أقبلنا على الشيخ ارتعدت فرائصنا من جلالته ، فعن هذا الشيخ المبارك كان أخذه ، وبه كان انتفاعه وتبركه ، وكان تلميذه الخاص به ، فحصل على حظ جزيل من فوائده وأسراره ، وكان الشيخ يسميه فيما سمعت : النجيب ، ويخصه بالعلوم الخفية والأسرار الدينية ، فنشأ على ذلك خير نشأة ، وتربى فى حجره خير تربية ، وهو على ذلك إلى الآن فى زيادة اجتهاد فى الخيرات ، وملازمة الطرق الصالحات ، والغالب عليه رقة النفس والخشوع ، وهو صاحب حال ، والحال عند القوم عبارة عن معنى يرد على القلب ، فيشرق فيه نوره كوميض البرق ، وهو مما لا يدوم زمانين ، فإذا تكرر الحال وثبت كان مقاماً ، ولذلك قالوا رضوان الله عليهم : الأحوال مواهب والمقامات مكاسب ،

والأحوال تأتى من عين الجود ، والمقامات تحصل ببذل المجهود ، وصاحب المقام متمكن فى مقاله ، وصاحب الحال مرقى عن أحواله .

٢٤ ـ ومن الطبقة الثانية : الشيخ الناسك الصالح المبارك ، العاكف على العبادة ، الظاهر البركة والسيادة ، أبو عبد الله السيد محمد العربى .

نزل فاساً وانقطع للعبادة منها بجامع بموضع يقال له غدير الجوزة ، وهو به حتى الآن أحد فضلاء الوقت وأشياخه الموسومين بالخير والصلاح ، والاجتهاد فى العبادة ، وسلوك سبيل المؤمنين ، لقيته غير مرة ، وتبركت به والتمست دعاءه الصالح ، وله طريقة مبنية على الخلوة والذكر وتلاوة كتاب الله تعالى عز وجل ، وله بركة معروفة فى بقية وضوئه يستشفى به المرضى ، وينال بركته المصروعون من مس الجن ، وله فى ذلك قوة يقين بحسن نيته نفعه الله ونفع به ، ولم تكن له حالة تغلب عليه فيما أعلم غير الانقطاع لباب الله تعالى ، واللجأ إلى الله عز وجل ، وكفى بذلك شرفاً وفضيلة .

٢٥ ـ ومن الطبقة الثانية : الشيخ المتخلق المتواضع ، الحسن الهدى الخائف الخاشع ، الناسك المبارك أبو الحسن اللجائى .

تلميذ الشيخ أبى عبد الله الحلفاوى ، أحد أعلام مشاهير الوقت ، والظاهرين بطريقة الخير ، المنتصبين لأفعال البر ، لقى عدة من الأكابر وفضلاء المشايخ ، مثل الشيخ الزيات ، شيخ شيخه الحلفاوى ، ونظرائه ومن كان فى وقته ، فاقتبس من أنوارهم ، واستفاد من فوائدهم ، وتأدب من آدابهم ، وانتفع بخدمتهم وموالاتهم ، وظهر عليه ما نال من بركتهم ، فما زال بعد مثابراً على الخير ملازماً لطريقة البر ، مشتغلا بزكاة نفسه وطهارة قلبه ، حافظاً لكتاب الله عز وجل .

وكانت له بداية اجتهادية ، وحالة مرضية ، فمن ذلك أنه كان يجلس بعد صلاة الصبح ذاكراً لله تعالى متوجهاً فى المسجد ، فلا يزال على حالته تلك إلى وقت الزوال فإذا رام القيام يؤثر الحصير فى لباسه[1] ، وكان

(١) فى ك : أسافله .

مع ذلك كثير الخدمة لشيخه ، كثير المراقبة لأحواله ، دائم الملازمة له ، وسلك نوعاً من طريقته فى القيام على مصالح المسلمين ، والنظر فى أحوال المساكين ، والوساطة فى الصدقات عليهم ، والمبالاة بأمرهم .

وله فى حسن المحاولة فى إصلاح ذات البين بين الناس قدم ، وفى زوال الشحناء والتباغض بينهم ، والذى يؤثر من طريق العبادات : ذكر الله تعالى عز وجل مفتاح الخير وأول مقام التائبين ، فإنه ضد الغفلة ، وهو على ثلاثة مراتب : ذكر باللسان وهو أولها ، وذكر بالقلب ومعناه يقظة القلب وحضوره مع الحق ، وهو أوسطها ، وذكر بالجوارح والقلب معاً بالوقوف عند حد الأمر والنهى وهو أعلاها وأرفعها . والمؤمن مطالب بالذكر على كل حال ، قال الله عز وجل : « يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا الله ذِكْراً كَثِيراً »(١) .

وقال تعالى : «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماوَاتِ والأَرْضِ واخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الله قِيَاماً وقُعُوداً وعَلى جُنُوبِهِم »(٢) — الآية —

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ، وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم أو يضربوا أعناقكم . قالوا : وماذا يا رسول الله ؟ قال : ذكر الله عز وجل » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاتقوم الساعة على رجل يقول الله الله » .

قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى : الذكر ركن قوى فى طريق الآخرة ، بل هو العمدة فى هذه الطريق ، ولا يصل أحد إلى الله تعالى إلا بدوام الذكر .

قال : وكان شيخنا أبو على الدقاق رحمه الله يقول : الذكر منشور الولاية .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٤١ ..

(٢) سورة آل عمران آية ١٩٠ .

وقيل لأبى عثمان الصوفى : إنا نذكر الله تعالى فلا نجد فى قلوبنا حلاوة ، فقال : احمدوا الله تعالى الذى زين جارحة من جوارحكم بطاعته .

وقيل : من يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله تعالى عنده ، فإن الله تعالى ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه . قال تعالى : « فاذكُرُونِي أَذكُرْكُم » (١) .

٢٦ — ومن الطبقة الثانية : العالم العامل ، ذو العقل الكامل ، والطبع الفاضل ، التائب التقى ، والفقيه المفتى ، نخبة من له من الأقران والأتراب ، الحاج المبرور أبو العباس أحمد بن محمد المدعو بالقباب .

من أهل فاس ، وممن يعرف بالفضل والدين ، ويعد فى طريقه العلماء العاملين ، تاب فحسنت توبته واستبانت فضيلته . ورحل إلى المشرق فلقى هناك الفضلاء من أهل العلم والصلاح ، واقتبس من أنوارهم ، وانتفع ببركة ملاقاتهم ، واجتلب من مصنفاتهم ، وسيرته الآن سيرة أهل الفضل من أكابر من تقدمه على الدؤوب على قراءة العلم وإقرائه ، واكتساب الطيب والتقشف ، وترك متاع الدنيا ، والتواضع للخاص والعام ، وخفض جناح الرحمة للضعفاء والمساكين . وهو ممن لقى سيدى أبا العباس بن عاشر رحمة الله عليه ، وتبرك به وبأمثاله من الفضلاء ، وما زال على هذه الحالة إلى الآن من زيارة الصالحين ، ورؤية الفضلاء من أهل الدين ، والتبرك بملاقاتهم ، ومشاهدة أحوالهم ، والتأدب بآدابهم .

(كملت الطبقة الثانية بعون الله تعالى ، يتلوها الطبقة الثالثة بحول الله وقوته)

٢٧ — فمنهم : الشيخ المبارك أبو عبد الله محمد بن يحيى ، المعلم لكتاب الله تعالى .

من أصحاب سيدى أبى العباس بن عاشر ، وممن له حظ وافر من الخير ، سلاوى الدار ، وبها توفى سنة أربع وستين وسبعمائة رحمة الله عليه ، وكان

(١) سورة البقرة آية ١٥٢ .

على طريقة الشيخ رضى الله عنه . فى ورعه وتحفظه ، وكان فى ذلك زكى النفس ، حسن الخلق ، جميل العشرة ، كثير التحمل للأذى ، صابراً محتسباً ، وكان ممن يوصف بالقناعة ، والقناعة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «القناعة كَنْزٌ لا يَنْفَد» ، وقال الله عز وجل : «مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِن ذَكَرٍ أو أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً »(١) ، قال كثير من المفسرين : الحياة الطيبة فى الدنيا القناعة .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كن ورعاً تكن أعبد الناس ، وكن قنوعاً تكن أشكر الناس ، وأحبب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً ، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما ، وأقلل الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب» .

وقيل : الفقراء أموات إلا من أحياه الله بعز القناعة .

وقال محمد بن على الترمذى : القناعة رضى النفس بما قسم لها من الرزق .

وقيل فى قول الله عز وجل : «إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً »(٢) : بالسخاء والإيثار .

وفى معناه قيل :

أَفَادَتْنِي القَنَاعَةُ أيَّ مَالٍ ... وأيّ غِنًى أعزُّ مِنَ القَنَاعَه

فَصَيِّرْهَا لنفسِكَ رَأْسَ مالٍ ... وَصيِّر بعدَهَا التَّقْوَى بِضَاعَه

٢٨ — ومن الطبقة الثالثة : الصالح المجد العابد المجتهد ، صاحب التقشف والتقليل ، الشيخ أبو على عمر السلاوى الدار النفزى القبيل ،

من أصحاب سيدى أبى العباس بن عاشر ، رضى الله عنهما ، ولقى قبله أكابر السلاويين وخدمهم وأخذ عنهم ، كان رحمه الله من العباد المجتهدين ومن عباد الله الصالحين ، وكان مؤثرا لطريقة الشيخ أبى العباس بن عاشر فى

(١) سورة النحل آية ٩٧ .

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٣ .

تقشفه وتقلله وورعه ، واحتياطه فى جميع أموره وخصوصاً فى كسبه ، حتى إن الشيخ رحمه الله كان يحرث أطيب أرضه من شدة احتياطه فى كسبه ، وكان ممن لاح له بارق الخير ، وذلك أنه كان يعمل فى بستان له يكتسب منه بموضع يقال له « آسمير » من ظاهر سلا ، وكان ذلك الموضع منه خصوصاً مظنه للأسود ومسلكها الذى تمر عليه ، وربما كانت تمر به وهو على شغله فى غداة أو عشى ، فلا تضره ولا تؤذيه ، فإذا قيل له فى ذلك يقول : إنها لن تضرنى إن شاء الله ، فإنى مسالم لها فى طاعة من طاعة الله عز وجل،وما ظنى بربى إلا خير ، وكذلك كان ، لم تضره قط ، ولا آذته ، حتى قبضه الله عز وجل ، سنة أربع وستين وسبعمائة رحمه الله .

وكان فيه إيثار على إخوانه وتحنن على الضعفاء والمساكين ، وما كان يدخر من قوته إلا قدر كفاية عائلته ويتصدق بالباقى ، وربما آثر بقوته وإن كان خاصاً به ، وربما كان يفعل ذلك ويكون صائماً ويطوى الصوم ، وكان من استقامة الحالة على سنن مرغوب فيه ، وقد قيل : الاستقامة مقام عال وطريق سائل ، قال الله عز وجل : «وأن لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأسْقَيْنَاهُم مَاءً غَدَقاً » (1) — الآية — .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن» .

وقال المشايخ رضى الله عنهم : للاستقامة درجة بها كمال الأمور وتمامها ، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها ، فمن لم يكن مستقيما فى حالته ضاع سعيه وخاب جهده ، وإن كان له كد واجتهاد .

٢٩ — ومن الطبقة الثالثة : الشيخ المبارك الصالح أبو عبد الله السائح .

من أهل سلا ، وممن لقى سيدى أبا العباس بن عاشر ، ونظراءه من أهل زمانه ، فأخذ عنهم وتبرك بهم واقتبس من فوائدهم ، مذهبه السياحة فى الفلوات ، والتجرد للعبادات إلا أنه فى التاريخ بلغ به السن إلى غاية لا يستطيع

(1) سورة الجن آية ١٦ .

على المشى والجولة ، فاستقر بسلا ، فإذا سئل عن فائدة العزلة والسياحة ، يقول : السلامة فى العزلة والراحة فى الخلوة ، والعبرة فى السياحة ، ومن خالط الناس اشتغل . والسياحة حالة من حالات الأكابر وهى نوع من مقام لمن غلبت عليه ولازمها ، وهى من باب العزلة والخلوة ، ولا تتم إلا بشروط هى مقامات مثل الصبر والمجاهدة ، والصوم والذكر والاعتبار ، وتحصيل ما لابد منه من العلم والفقه والعبادات .

٣٠ — ومن الطبقة الثالثة : الشيخ البصير المثابر على أعمال الخير ، وصاحب الباطن المستنير ، أبو سليمان داود البصير .

أحد الأخيار المتعبدين ، من العباد الفاسيين ، ساذج الطريقة حسن الهدى ، سالم الفطرة ، مشغول بما يعنيه ، كثير المواظبة على الخير ، متوق عن الشبهات ، مسارع فى الخيرات ، معمور الباطن فى الحق ، زاهد فى الدنيا راغب فى الآخرة ، مستتر بصلاحه متواضع ، شفيق القلب غزير الدمعة ، رقيق النفس ، من أحسن المجتهدين حالا ، وأصوبهم مذهباً .

وله حظ من مقام الصبر ، وقد قيل : إن الصبر من شعب الإيمان ، والصبر على أقسام : الصبر على ما هو كسب للعبد ، وصبر على ما ليس له . فالصبر على كسبه على قسمين : صبر على ما أمر الله تعالى به ، وصبر على ما نهى عنه ، وأما الصبر على ما ليس بكسب : فصبر على مقاساة ما يتصل به من حكم الله تعالى فيما له فيه مشقة .

وقال على رضى الله عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد .

وقال ابن عطاء الله : الصبر الوقوف مع البلاء بحسن الأدب .

وفى الخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن الإيمان فقال : «الصبر والسماحة». وقال ابن عيينة فى قوله تعالى «وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا»[1] . قال : لما أخذوا برأس الأمر ، جعلناهم رؤوساً .

---

(١) سورة السجدة آية ٢٤ ..

٣١ — ومن الطبقة الثالثة : البر الزكى البادى العلامة ، صاحب الحال والكرامة ، الكثير البركة والمعروف ، أبو محمد عبد الله بن مخلوف .

من أهل بادية سلا ، ومن أهل الصلاح والعبادة ، وممن طار له ذكر فى الاشتهار بالخير ، وله صحبة مع سيدى أبى العباس بن عاشر ، ولقى غيره من أكابر السلاويين ، وله حالة معروفة وكرامة مشهورة ، فمما حدث به بعض أصحابه قال : كان الشيخ أبو محمد معتكفاً فى العشر الأواخر من رمضان بجامع القرويين من فاس ، وكنت إذ ذاك أخدمه وأهيىء له ما يحتاج إليه ، وكان له فى الوقت أهل وقرابة بموضع من ظاهر سلا ، فبينما أنا جالس معه فى الخلوة إذ به قام بسرعة وصاح وضرب بيده واغتاظ غيظاً شديداً ، فلما سكن ما به تلطفت فى سؤاله عن ذلك فقال لى : إن فلاناً — وعين واحداً من جيرانه فى البادية — قد استشرف الآن لينظر على زوجتى فى بيتها فصحت به ولطمته ، قال فورخت ذلك اليوم وخصصت تلك الساعة ، وفحصت بعد ذلك عما أخبر به ، فو الله ما غادر شيئاً مما جرى ، وقال لى ذلك الرجل لما سألته عن المسألة : نعم ، سمعت صياحه ورأيت يده لطمتنى ولم أر شخصه .

وحكى بعض الموثوق بهم من أصحاب سيدىأبى العباس بن عاشر هو وآخر مثله ، أنهما رأياه وقد جاز عشية من وادى سلا من هذه العدوة إلى تلك الأخرى من غير قارب فى أسرع وقت ، قالا : ولا علمنا كيف صنع ، هل مشى على الماء ، أو خطا خطوة من هذه العدوة أو انطوى له الفضاء .

وله حظ من مراقبة الخوف وقمع الهوى ، وقد قال الله عز وجل : « وأَمَّا مَن خَافَ مَقَامَ رَبِهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى ، فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى »(١) .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «أخوف ما أخاف على أمتى اتباع الهوى وطول الأمل ، أما اتباع الهوى فيقسى القلب ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة » .

(١) سورة النازعات آية ٤٠ ، ٤١ .

وقال سهل بن عبد الله : ما عبد الله تعالى بمثل مخالفة الهوى ، وقد قيل : إنما طاروا فى الهواء ومشوا على الماء لمخالفتهم الهوى .

وأنشد :

نوُنُ الهَوَان من الهوى مَسْرُوقَةٌ وصريعُ كل هَوى صريعُ هَوَان

وفى الحكم : قُرن الصبر بالظفر .

٣٢ — ومن الطبقة الثالثة : الشيخ الكثير البركات ، الدائم الصوم والصلوات ، الحاج السنى الأوصاف ، أبو عمران موسى العزاف ، من أهل مكناسة وبها هو الآن .

كانت له مكانة ومزية عند سيدى أبى العباس بن عاشر لم تكن لأحد غيره ، متى ما كان يقدم عليه زائراً ينزله فى داره ويضيفه من كسبه ، وهذا شىء لم يكن يصنعه لأحد غيره ، وكان يقربه أدنى التقريب ، ويطلعه من أمره ما لم يطلع عليه غيره ، وحاله مع ذلك عجيب فى عبادته واجتهاده ، واتفقت له ألطاف فى وجهته إلى المشرق منها : أنه كان فى المواضع التى لا يوجد فيها الماء ، يجد الماء فى ركوته فيتوضأ منه ويشرب ، حكى لى ذلك عن نفسه ، وحكاه عنه غيره ، وله قدم عالية فى التقشف والصبر على سلوك سبيل الخير ، والمثابرة على مشاقه ، نفعه الله ونفعنا به .

٣٣ — ومن الطبقة الثالثة : الفقير الصابر المنور الباطن والظاهر ، المداوم على تلاوة القرآن ، أبو زكرياء يحيى الفران .

من رجال مكناسة وأخيار عبادها ، حسن اللقاء كثير البشاشة ، مسترسل الطلاقة والبشر ، دائم القبول ، متصل اللهجة ، جميل التعطف ، واسع الصدر فى المستأنس على سجية أهل الفضل والدين أمثاله ، يحدث عن سيره فى عباداته واجتهاداته ، وتصرفه وورعه فى كسبه ، وتحفظه على أمر دينه من باشره ، ما تقر به عين للأولياء ، ويعز وجوده فى زمانه ، وكذلك كثر التحدث على إيثاره غيره على نفسه بما يكون لديه ، وعن اشتغاله بطهارة

قلبه ، وعما ظهر على محله من علامة توفيقه والله تعالى يمن على من يشاء من عباده بفضله ورحمته .

٣٤ ــ ومن الطبقة الثالثة : التائب المتقى والمريد المهتدى ، المحتسب الصابر ، أبو عبد الله محمد المهاجر .

تلميذ الشيخ أبى الحجاج يوسف بن عمر الأنفاسى ، وأخو ولده سليمان فى التربية والطريقة ، أحد الأخيار المعدودين فى نجباء المريدين ، لقى مشايخ أهل زمانه ، واقتبس من فوائدهم ، واستمتع بالشيخ سيدى أبى العباس بن عاشر رضوان الله عليه ، وتبرك به وانتفع بموالاته ، وكان حميد الطريقة ، حسن النزعة ، وطىء الأخلاق ، نقى الجانب ، مقبولا عليه متخلقاً ، وله حكايات غريبة فى خروجه من أرض الكفر ، وما كان سبب ذلك ، مما يشهد له باعتناء الله عز وجل ، وما جرت عليه من الألطاف فيها ، وكان مواظباً على الخيرات ، ملازماً لحضور حلق العلماء ، مقبلا على طلب الاستفادة منهم ، كثير الزيارة والتردد لأهل الفضل والدين .

رحل إلى البلاد المشرقية برسم أداء فريضة الحج ، وإلى الآن لم يحدث له رجوع ، ولا سمعت له خبراً ، وكان فيه إيثار على ذوى الدين المستضعفين.

٣٥ ــ ومن الطبقة الثالثة : الشيخ المواظب على الخير ، الكثير المجاهدة والصبر ، المتبتل العابد ، أبو عبد الله محمد الزاهد .

جاناتى الأصل ، نزل فاساً وهو بها حتى الآن ، معروف القدر ، مشتهر الذكر ، دائم الاجتهاد ، ذو حظ من العلم ، كثير المطالعة لكتب العلماء ، عليه مخيلة العبادة بادية، وأنوار الطاعة لائحة ، أنحل جسمه الجهد ، وتورس لونه من شدة الخوف ، متقشف ترد عليه الحالات .

وكان قد بلغ الوصال فى الصوم لأن جفف الرطوبات من بدنه ، فأحدث ذلك عنده يبساً ، ثم استقام بعد ذلك مزاجه واعتدل تصوره ، وهو إلى الآن على سبيل الخير وملتزم مسلك البر فى زيادة وترق . وأدرك شيوخ الفاسيين ، ولقى أكابر الموفقين ، وتأدب بآداب الأخيار ، فلاحت

عليه من بركاتهم أنوار الأسرار ، والغالب ردع هوى النفس بالجوع المعتدل ورياضات النفس به من حالات الصالحين ، ومقام من مقامات السالكين ، وهو ركن من أركان المجاهدة ، فإن أرباب السلوك تدرجوا إلى اعتياد الجوع والإمساك عن شهوة البطن ، فوجدوا ينابيع الحكمة فى الجوع ، وكثرت الحكايات عنهم فى ذلك وقد قال الله عز وجل : « ولنبلونكم بشىء من الخوف – وقال فى آخر الآية – وبشر الصابرين»(١) . فبشرهم بجميل الثواب على الصبر على مقاساة الجوع .

وقال يحيى بن معاذ : الجوع للمريدين رياضة ، وللتائبين تجربة ، وللزهاد سياسة ، وللعارفين تكرمة .

وقال سهل بن عبد الله : لما خلق الله الدنيا جعل فى الشبع المعصية والجهل ، وجعل فى الجوع الطاعة والحكمة .

٣٦ – ومن الطبقة الثالثة : الشيخ المبارك ، العابد الناسك ، أبو بكر بن يونس .

رجل من أهل الخير والفضل ، وهو ممن تلتمس بركته ، وهو ابن خالة سليمان بن يوسف بن عمر ، وابن خالة عبد الرحمن بن مصباح الفقيه وهو من أصحاب سيدى أبى العباس بن عاشر الخاصين بموالاته ، ولقى جميع أصحابه ومن كان فى وقته من الفضلاء أمثاله ، فاسى الدار ، رحل إلى البلاد المشرقية ، ولقى هناك جماعة من الأخيار وتبرك بهم ، وأخذ عنهم ، وتأدب وصحب المريدين فتهذب ، سالم الصدر زكى النفس حسن الخلق ، مقبل على ما يعنيه ، قليل الإذاية ، مصروف عن الشر ، متورع فى معيشته ، صابر على محن الوجود ، محتسب فى ذات الله تعالى .

وكان له اختصاص بسيدى أبى العباس بن عاشر ، وأطلعه على بعض شأنه وساره بشىء من أموره وأسراره ، وبينه وبين أبى عبد الله محمد بن عباد صحبة مؤكدة ، وله قدم فى المجاهدة والمعاملة الحسنة ، وله حظ وافر من

---

(١) سورة البقرة آية ١٥٥ .

العبادة وإقامة الأوراد ، والوظائف الدينية من صوم وصلاة وذكر وتلاوة ، نفعه الله ونفعنا به .

٣٧ ــ ومن الطبقة الثالثة : المتأمل الآيات بالاستبصار ، والمترقب لشروق لمحة الأنوار ، الشيخ الصالح التقى ، أبو زكرياء يحيي الزناسنى .

من حوز فاس، أحد فضلاء الوقت، وأفارد صلحائه النجباء الأخيار، صحب الشيخ أبا عبد الله الحلفاوى ، وأخذ بالجد والاجتهاد على طريقة زهاد العباد ، فصام وقام وقطع علائق النفس ، وتوجه منقبضاً عما هو بسبيله ، وله منقبة جليلة ، حدثناها بعض أصحابه ، وفشى خبرها واشتهر أمرها عند كثير من إخوانه الفضلاء ــ قال : كنت أخلو بنفسى وأجدّ فى أمرى ، فكان يأتى إلىّ رجل حسن الهيئة ، لم أر له قط مثلا هديا وسمتاً ، وحالا ورائحة حسنة، وكان يعلمنى ما يخصنى من أمر دينى ، ويودعنى أسراراً من العلوم ، وكنت أعجب من أمره ، إلى أن شرح الله سبحانه صدرى لمعرفته ، وعلمت من وجه صحيح أنه الخضر عليه السلام فحمدت الله تعالى على ما آتانى . ولم يقل ذلك إلا بعد دهر ومدة من وقت رؤيته نفعه الله ونفعنا به .

٣٨ ــ ومن الطبقة الثالثة : العامل الصالحات ، المواظب على الخيرات ، الشيخ الكثير البركات ، أبو زيد عبد الرحمن الحوات .

أحد نجباء الوقت المنحازين إلى مصاف الأخيار ، وهو من أصحاب الشيخ الحلفاوى ، قديم التوبة ، مداوم على الإقلاع وملازمة الأعمال الصالحات ، متقشف زاهد ، خير عابد ، وكان ابتداء حاله وتوبته ما حدثنى به فى جمهور من أصحابه قال : كنت أصطاد الحوت وأكتسب منه فخرجت يوماً لشأنى فصعدت على ربوة وجلست مفكراً ، وكنت أعترض على سيدى أبى عبد الله الحلفاوى طريقته ، فزاد ذلك فى بالى ونظرت فى أمره ، فأثبت الله سبحانه فى قلبى محبته ، وأرانى محاسنه ومحا من صدرى كراهيته ، وظهر لى أنه من آحاد رجال الوقت ومشايخه ، فنزلت من فورى إليه وتبت

إلى الله تعالى على يديه ولازمت خدمته وموالاته ، ففتح الله تعالى على قلبي ببركة الشيخ خيراً كثيراً ، والحمد لله على توفيقه .

وله حظ من الورع وقدم فى صدق الملاقاة وإظهار البشاشة وطلاقة أسرة الوجه ، نفعنا الله به .

٣٩ ـ ومن الطبقة الثالثة : المرتاد المؤدب المتخلق المدرب الصادق الطلب الشيخ أبو عبد الله الزجارى النسب .

من أخيار الوقت وفضلائه ، وهو من أصحاب الشيخ الحلفاوى وممن ظهرت له من تلاميذه نجابة زائدة صحبها وافر عقل وعالى همة، بل إدراك ونية، وكان دمث الأخلاق ، حسن الطريقة ، رفيق المأخذ ، سهل الجانب ، يبتدر فهمه وتتمكن درايته المحصلة ، يشهد له أكثر إخوانه بهذه الحالات الفاضلة ، ويقر له بالتقديم لذلك . توفى سنة ثمان وستين وسبعمائة رحمة الله ورضوانه عليه ، ونفعه الله ونفعنا به .

٤٠ ـ ومن الطبقة الثالثة : الشيخ الصالح ، المجتهد الناصح ، المنور الباطن والظاهر ، أبو الحجاج يوسف بن المعز الجابرى .

من أهل بادية سلا ، نزل فاساً وبها توفى رحمة الله عليه سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة .

كان رضى الله عنه أمياً من خيار أهل الوقت ، انتفع المسلمون بنصيحته فى الخير وقناعته بالأجر ، مسنًّا أدرك المشايخ الكبار وكان له حظ من الخير ، وتعلق بالرجاء .

حكى لى عن نفسه قال : لقد رأيت فى الوقت رجلا من رجال الغيب ، وأنا أجتهد فى الصوم وأداوم الوصال ، فدفع لى أصل نبات وأمرنى بأكله ، فأكلته فبقيت دهراً لا أطعم ولا أنزع إلى ذلك ، وقوتى مع ذلك موفورة بحيث ما أمتنع من أداء الفروض ، فأطلعنى الله عز وجل فى تلك المدة على أسرار ، وكان يهجس بخاطرى أن أفرق بين أهل الجنة وأهل النار ، حتى

كأنى أبصر قلوبهم وبواطنهم ، ثم رجعت بعد ذلك إلى معتادى من الأكل ، فارتفع عنى ذلك الهاجس .

وحدثنى أن رجلا من الأكابر رأى فى عالم النوم كأن براءة نزلت من السماء ، والناس يتطاولون لأخذها ، قال : فنزلت فى كنى ففتحتها ، فإذا فيها بخط من نور : بسم الله الرحمن الرحيم ، براءة من الله سبحانه ليوسف بن المعز من النار . قال : وكانت يدى بعد ذلك أعطر من المسك ، بقيت على ذلك دهراً .

وحدثنى أنه فى وجهته تلك أعطاه رجال من أهل الغيب شيئاً من الحناء ، وقالوا له : ارجع إلى الناس بهذه الحناء ، فلا تضعها فى ذى عاهة إلا شفاه الله تعالى ، قال : وتعلمت بعد ذلك صناعة الجبر فصرت إذا ربطت مكسوراً أو مفكوكاً أجعل عليه شيئاً من الحناء ، فإنه يبرأ بإذن الله تعالى .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «فبينما أهل الجنة فى الجنة فى مجلس لهم ، إذ سطع عليهم نور على باب الجنة ، فرفعوا رؤوسهم فاذا الرب عز وجل قد أشرق عليهم ، فقال : يا أهل الجنة سلونى ، فقالوا : نسألك الرضى عنا ، قال سبحانه وتعالى رضائى عنكم أحلكم وأنيلكم كرامتى هذا أوانها ، سلونى . فقالوا : نسألك الزيادة ، قال : فيؤتون بنجائب من ياقوت أحمر أزمتها من زمرد أخضر ، فجاؤوا عليها تقع حوافرها عند منتهى طرفها ، فيأمر الله تعالى بأشجار عليها الثمار ، وتجىء جوار من الحور العين وهن يقلن : نحن الناعمات فلا نبأس ، نحن الخالدات فلا نموت ، أزواج قوم مؤمنين كرام . ويأمر الله عز وجل بكثبان من مسك أبيض أذفر ، فينشره عليهم ريح يقال لها المثيرة ، حتى ينتهى بهم إلى جنة عدن وهى قصبة الجنة ، فتقول الملائكة يا ربنا : قد جاء القوم فيقول عز وجل : مرحباً بالصادقين . قال : فيكشف لهم الحجاب ، فينظرون إلى ربهم عز وجل ، فيستضيئون بنور الرحمن حتى لا يبصر بعضهم بعضاً ، ثم يقول الله عز وجل : ارجعوهم إلى القصور بالتحف ، قال

فيرجعون وقد أبصر بعضهم بعضاً . قال صلى الله عليه وسلم : فذلك قوله عز وجل : « نزلا من غفور رحيم »[1] .

٤١ – ومن الطبقة الثالثة : الشاب الزكى ، البر التقى ، أبو الحسن على المغيلى .

من أخيار شباب عباد السلاويين ونجبائهم ، زكراوى الطريقة ، معلم لكتاب الله عز وجل ، متفقه فى دينه ، لقى سيدى أبا العباس بن عاشر رحمه الله ، ونظراءه مثل سيدى عبد العزيز ، وسيدى على أيوب وغيرهم ، فهو ممن عرف بالصلاح والخير ، ويؤم الناس فى زاوية سيدى أبى زكرياء فى رمضان ، فيقرأ فى كل ليلة القرآن العزيز ، ولا ينام حتى يختمه ، شاب منسدل جلبات الحياء ، متقنع برداء الأتقياء ، والحياء مقام من مقامات الأولياء ، وصفة من صفات الأصفياء ، قال الله عز وجل : « ألم يعلم بأن الله يرى »[2] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحياء من الإيمان » .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم لأصحابه : «استحيوا من الله عز وجل حق الحياء ، قالوا : إنا نستحيي يا رسول الله والحمد لله . قال : ليس ذلك ، ولكن من استحيا من الله حق الحياء ، فليحفظ الرأس وما حوى ، ويحفظ البطن وما وعى ، وليذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله عز وجل حق الحياء » .

وقال الشيوخ رضوان الله عليهم : الحياء على وجوه : حياء كحياء آدم عليه السلام لما قيل له أفراراً منا ، قال : لابل حياء منك . وحياء التقصير كحياء الملائكة ، فيقولون : ما عبدناك حق عبادتك . وحياء الإجلال كحياء إسرافيل عليه السلام ، حتى تسربل بجناحه حياء من الله عز وجل . وحياء الكرم كحياء النبى صلى الله عليه وسلم ، كان يستحيي ممن يأتيه إلى بيته ويطول أن يقول

---

(١) سورة فصلت آية ٣٢ .
(٢) سورة العلق آية ١٤ .

اخرجوا ، فقال الله عز وجل : «ولا مستأنسين لحديث»(١) الآية ؛ وحياء حشمة كحياء على رضى الله عنه حين سأل المقداد ، أن يسأل له النبي صلى الله عليه وسلم عن حكم المذى ، لمكان فاطمة رضى الله عنها منه . وحياء الاستحقار كحياء موسى عليه السلام ، فقال : إنه لتعرض لى الحاجة فأستحيي أن أسألك يا رب ، فقال له عز وجل : اسألنى ملح عجينك وعلف دابتك . وحياء هو صفة الرب سبحانه وجلت قدرته ، يرفع إلى العبد كتاباً مختوماً ، بعد ما عبر الصراط ، وإذا فيه: فعلت ما فعلت، وقد استحييت أن أظهر عليه ، فاذهب فقد غفرت لك .

وفى الحديث : «الحياء خير كله ، والحياء لا يأتى إلا بخير» .

وفى الحديث : «مما أدرك الناس من كلام النبوة ، إذا لم تستح فاصنع ما شئت» .

وقال الفضيل بن عياض : من علامة الشقى القسوة فى القلب ، وخمود العين ، وقلة الحياء ، والرغبة فى الدنيا ، وطول الأمل .

وقيل : الحياء انقباض القلب بتعظيم الرب .

انتهى عدد المسمى من الأخيار ، المطهرة قلوبهم من درن الأكدار ، المتقرب بهم وصلة لسبب التوسل بهم ، بل بسببهم يجهد مقل القصور قصاراه ، وجهد العي حصراً أولى مقاله وأخراه ، قعد به العجز عما هو من وصف سجاياهم الفاضلة يتمناه ، فصار بحسب طاقته إلى منتهى طوره من غاية مداه ، وإن لم يكن ممن يحسن وصف حليتهم ، فالله المطلع على ما انطوى عليه من صادق محبتهم ، فأستغفر الله من تبعات التقصير ، وأسأل منه جل وعلا على إثر ذكر هؤلاء الأعلام الحلة ، والمهتدين المفلحين الذين أحيوا مآثر الملة ، لهذا المقام العزيز ، الذى أشرقت بعدله الأيام ، واعترف بفضله الأنام ، وقضت مناقب خلافته الكريمة ، بأن تسطير أخبارهم ، وتقرير بركات ما لاح من أنوارهم ، أجل ما تستخدم فى تخليدها الأقلام ، نصراً

---

(١) سورة الأحزاب آية ٥٣ ..

يصحبه الدوام ، وسعداً يعز به الأنام بل الإسلام ، وتمكيناً لا تعرف عراه الانفصام ، وفتحاً يشمل البسيطة وأهلها فتمهد له الأقطار ، وتلهج بتيسيره الأحلام ، وينسكب منه على جميع خلق الله المن والإنعام ، بفضل الله وطوله ، ومعونة قوته وحوله .

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم رسله ، وعلى آله وأصحابه وأنصاره وحزبه ، المتعلقين بحبل الله وحبله ، وسلم تسليما .

كمل بحمد الله السلسل العذب ، والمنهل الأحلى ، المرفوع للخلافة العزيزية ، التى لا تزال مناقبها على مر الدهور تتلى ، فى سلك من تحلى سلكهم الأربعينى فى الجيل جيل فاس ومكناسة وسلا ، على يد المتقرب بتأليفه ورفعه لخزانتها العلية ، عبد إنعامها ، المتعلق الرجاء بشامل إحسانها وعميم إنعامها ، محمد بن أبي بكر الحضرمى . عرفه الله ببركة رجاله عواف القبول ، وأظفره من إشفاق الدولة العزيزية والخلافة التى لها من الله فضل المزية ، بتسنى المرغوب وتأتى السول ، بمنه وفضله .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما ، كثيراً طيباً مباركاً فيه إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

انتهى بحمد الله وحسن عونه ، ١١ شعبان عام ١٣١٦

على يد العبد الفقير الجانى : عبد الرحمن بن جعفر الكتانى

بمدينة فاس ، صانها الله وأهلها من كل باس ، من نسخة كثيرة التصحيف والتحريف . والصلاة والسلام على خير الأنام ، وعلى آله الكرام .